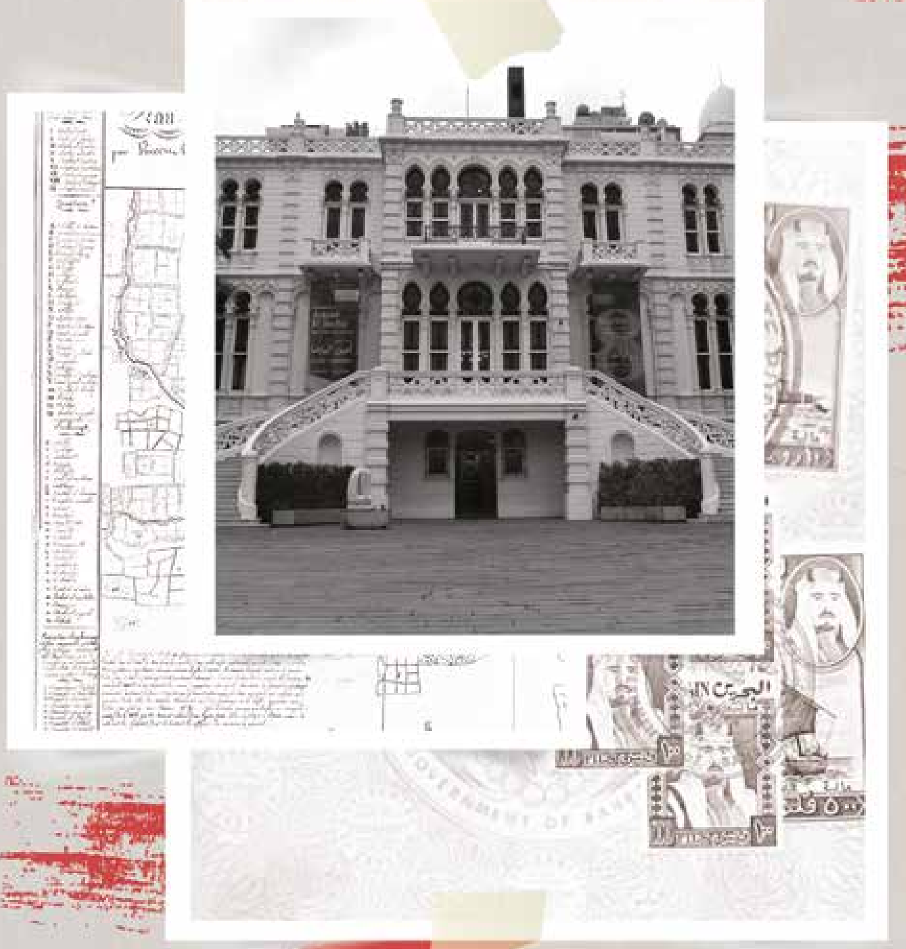


أرشيفو

نشرة تهتم بموضوعات الأرشيف تصدر عن
مركز أوال للدراسات والتوثيق

العدد 11 - شباط/ فبراير 2019







نشرة فصلية مختصة بموضوعات الأرشيف تصدر عن
مركز أوال للدراسات والتوثيق
العدد 11 - آذار/ مارس 2019

نشرة فصلية تصدر عن مركز أوال للدراسات والتوثيق، تحت عنوان (أرشيفو). تعنى بقضايا الأرشيف، تنطلق من البحرين إلى الخليج إلى العالم العربي وخارجه.

تغطي النشرة المجالات التالية: المشكلات التي تواجه الأرشيف، طرق حفظ الأرشيف، التعريف بأصحاب الأرشيف الأهلي ومراكز الأرشيف الرسمي، التعريف بالمدونات والمواقع الإلكترونية المهتمة بالوثائق والأرشيف، ترجمة المقالات المنشورة بلغات أجنبية، مراجعة الكتب المتعلقة بالأرشيف ومتابعة الأنشطة والفعاليات ذات العلاقة بالذاكرة والأرشيف.

عنوان النشرة يشير إلى أن كلمة (أرشيف Archives) متقاربة النطق والكتابة والجذر في أغلب لغات العالم، وفي اللغة البرتغالية تنطق هكذا (أرشيفو Arquivo).

رابط مدونة أرشيفو:
awalcentre.com/Archivo



info@awalcentre.com | www.awalcentre.com



awalcentre

الفهرس

الافتتاحية

عدوُّ النّاس جميعًا

رئيس التحرير

"الإرث الثقافيّ للمجتمع الدوليّ هو حصيلة الإرث الوطني لكلِّ الأمم" [1].

إنَّ قتل إنسان واحد هو قتل للإنسانية كلّها، كما جاء في الآية الكريمة: {أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا}، وإحياء نفس إنسان واحد هو إحياء لنفس الإنسانية كلّها: "وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا"، كذلك إبادة كتاب واحد أو وثيقة واحدة أو مكتبة واحدة أو معلم تاريخيّ واحد هي إبادة لتراث البشرية كلها، وإحياء وثيقة واحدة هو إحياء لتراث البشرية كلها.

من يقتل البشر يقتل، قبل ذلك أو بعد ذلك، أو بالتزامن مع ذلك، وثائقهم وكتبهم وتراثهم ومعالمهم وتراثهم، بل إنَّ هؤلاء القتلة، أعداء الإنسانية، ينتقمون بأثر رجعي، ينبشون قبور الَّذين قتلوهم كي لا يبقى لهم أثر، ويحرقون وثائقهم، ويمنعون ذكرهم، ويحرمون الكتابة عنهم، ويحظرون الحديث عن جريمتهم، "إنهم يقتلون الموتى كما يقتلون الأحياء"، كما يُعلّق روبرت فيسك (Robert Fisk) على ما فعله الصّرب في البوسنة. الحرب على الوثيقة هي نفسها الحرب على الهوية والعرق واللغة والجنس والدين.

يذهب قاموس أكسفورد في تعريفه "إبادة الكتب" (Libricide) إلى وصفها بأنها مصطلح نادر يشير من دون لبس إلى "تدمير الكتاب"، وهو مصطلح يقرن بين الكتاب والتدمير، مثلما هو الحال في كلمة قتل / تدمير / إهلاك الإنسان (Homicide). ويبرز أصل المصطلح الرابط بينه وبين الإبادة الجماعية[2] والإبادة الإثنية (Genocide).

القاتل عدوّ الإنسانية؛ قاتل الإنسان وقاتل وثائق الإنسان، لأنَّ تدمير الوثائق تجريد للإنسان من وجوده

وأصالته وماهيته التي بها يُعرّف. وكما أصبحت حقوق الإنسان عالمية، لها مؤسَّسات تدافع عنها وتعتبر أيَّ اعتداء على إنسان، لعرقه أو جنسه أو دينه، اعتداء على الناس كلّهم، كذلك أصبح الأرشيف حقًّا عالميًا له مؤسَّسات تحافظ عليه، وتدافع عنه، وتصونه، وتتعهَّده بالرعاية والحماية، وتعتبر الاعتداء على أيِّ أرشيف اعتداء على ذاكرة البشرية كلها.

حين سحق حرس ماو (Mao Zedong) (1893 – 1976) الأحمر الصيني في العام 1966 صور الكاتدرائية المركزية في التبت، وشوَّه اللوحات الجصية، ودمَّر الكنوز المبجّلة الموروثة عن البوذية، فإنَّه سحق تراث البشرية كلّه وشوّهه ودمّره، وكذلك فعل هتلر (Adolf Hitler) (1889 – 1945) حين احتفل وزير دعايته غوبلز (Joseph Goebbels) (1897 – 1945) ليلة إحراق الكتب في برلين في العام 1933، بقوله: "ها هو الماضي يحترق"، وبعدها دمَّر جميع كتب المكتبات التشيكوسلوفاكية التي لا تتفق مع الأيديولوجيا الألمانية النازية.

وكذلك فعل صدام حسين (1937 – 2006) حين أتلف جزءًا كبيرًا من مقتنيات الكتب في مكتبة جامعة الكويت التي ضمَّت 24410 مراجع و540955 مجلدًا وتقريرًا ورسالةً ومواد سمعية وبصرية وميكروفيلمًا ودورية. وكذلك فعل سلوبودان ميلوسيفيتش (Slobodan Miloševic) (1941 – 2006) حين أحرق مبنى المكتبة الشَّخصية لعليّ صديقوفيتش ومقبرة عائلته، بما تحويه المكتبة من 100 مخطوطة باللغات التركية العثمانية والبوسنية والعربية والفارسية، ودمّر ألف مسجد وكلّ علامة تدلّ على الوجود الإسلامي في البوسنة، وأتلف أوراق أقدم العائلات المسلمة.

الهوامش:

1. ربيكا نوث، إبادة الكتب تدمير الكتب والمكتبات برعاية الأنظمة السياسية في القرن العشرين، ص 13.
2. المصدر نفسه، ص 314.



جانب من معرض مكتبة غازي خسرو بيك في سراييفو، وهي تعتبر صندوق ذاكرة منطقة البلقان



المؤرّخ الدكتور أنطوان الحكيّم يوقع أحد كتبه المتخصصة في الأرشيف الفرنسي
في معرض الكتاب الفرنكوفوني في بيروت

أمناء الذاكرة

المؤرّخ الدكتور أنطوان الحكيّم:
أرشيف الانتداب مصدر أساسي لكتابة تاريخ لبنان في القرن العشرين

زينب الطحان

تتمحور دراسات المؤرّخ الدكتور أنطوان الحكيّم حول تاريخ المشرق العربي عمومًا، ولبنان على وجه الخصوص، في ملفّات الأرشيف الفرنسي، وتحديدًا في القرنين التاسع عشر والعشرين. ساعده على التعمّق في هذا التخصّص وجوده لفترات طويلة في فرنسا، حيث نال أكثر من دكتوراه دولية في التاريخ والأدب الفرنسيين من جامعة السوربون، ودرّس في عددٍ من الجامعات الفرنسية.

لماذا اختار التخصّص في التاريخ المعاصر؟ لم يكن لهذا الاختيار سرّ محدّد، يقول الحكيّم. شجّعه على دراسته تمكّنه من عدة لغات، اللاتينية واليونانية والسريانية والعبرية، إلى جانب اللغة الفرنسية، التي أضحت، بالنسبة إليه، بمثابة اللغة التوأم للعربيَّة.

في رأي الدكتور الحكيّم، إنَّ مجال البحث في التاريخ المعاصر واسع الآفاق، إذ إنَّ مصادره غنيَّة جدًا، وأرشيفه متوافر بكميّات هائلة، ولمّا يستثمر القسم الأكبر منه بعد، في حين أنَّ نصوص التاريخ القديم قليلة جدًا ونادرة، وعلينا الانتظار حتى تتوافر مخطوطات ووثائق جديدة، كي يُقبل المؤرخون على دراستها، فالنصوص المكتوبة مستثمَرَة، وعمل عليها الكثير من معظم المؤرخين والباحثين، ولا توجد إمكانية للتوسّع فيها إلا بشكل استثنائي.

مراكز الأرشيف في فرنسا

يقول الحكيّم: "عملت على جزءٍ من الأرشيف الفرنسي الموجود في مدينة نانت (Nantes) الفرنسية، وهو الأرشيف الذي كان محفوظًا في العاصمة بيروت. عندما فتحت أحد الصناديق، فوجئت بأنَّه لا يحمل رقمًا، ثم علمت أنه لمّا يخضع للتصنيف في جداول محدّدة بعد. عندها، عرفت أنّ ثمة صناديق لم تُفتح منذ العام 1920، فأي ثروة علميّة لا تزال مخبأة فيها!"

بدأ أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية يتشكّل في العام 1793. قبل هذا التاريخ، كانت السفارات تابعة للبحريَّة، لأنَّ كلّ المراسلات كانت تجري عبر البحر، فلم يكن ثمة طائرات أو تلغراف، وكان هدف معظم القنصليات تجاريًا، كأن تفتتح قنصلية ما في إحدى المدن الناشطة تجاريًا. لذلك، كانت القنصليات ترتبط بالبحرية. وفي العام 1793، جرى فصل القنصليات عنها، مع وجود وزارة الخارجية، وبدأ الأرشيف يُحال إليها.

جزءٌ من الوثائق التي يعود تاريخها إلى ما قبل هذه المرحلة، تم نقلها من البحرية إلى الخارجية، لكونها تقارير عامة عن الأوضاع في الشرق الأوسط. يقول الدكتور الحكيّم في هذا المجال: "ما يهمنا هو أرشيف وزارة الخارجية. وإلى جانبه، يوجد قسم من الأرشيف ما زال موجودًا في السفارات والقنصليات، فقنصلية بيروت كانت تمتلك أرشيفًا، وكذلك قنصلية صيدا... هذا الأرشيف جُمع ووُضع في مركز نانت، بعد أن كان مركزًا عسكريًا قديمًا كبيرًا، وأُطلق عليه اسم "مركز الأرشيف الدبلوماسي"، ووُضع فيه أيضًا أرشيف البلاد التي كانت واقعةً تحت الانتداب أو الوصاية (الاحتلال)، أي تونس، المغرب، لبنان، وسوريا. أما أرشيف المستعمرات، كالجزائر وغيرها، فقد وُضع في مكان آخر، وكذلك أرشيف وزارة الخارجية".

هناك أيضًا أرشيف الحربية، وهو أرشيف البحرية والطيران والجيش البري. هذا الأرشيف وُضع في جنوب باريس في حصن قديم تم تحويله إلى مركز للأرشيف، فإذا كنا نريد أن نعرف معلومات وحقائق عن تاريخ لبنان خلال حقبة الانتداب، وعن الثورات التي حدثت، من مثل الثورة الدرزية، والمعارك التي شهدتها المنطقة، وغيرها من التفاصيل، فإننا نجده في مدينة فانسان (Vincennes). أمّا القضايا الدبلوماسيَّة، فإننا نجدها في وزارة الداخلية، في حين تتوافر المراسلات المحلية للزعماء المحليين أو الضباط الذين كانوا يتمركزون في حلب في مدينة نانت.

إضافةً إلى ذلك، فإنَّ أرشيف التاريخ القديم الذي يعود إلى القرن السادس والسابع عشر موجود في باريس في مركز الأرشيف الوطني. ويتوافر الأرشيف المعاصر، فضلًا عن الأرشيف الرسمي، في أرشيف غرف التجارة، وهو مهمّ، ولا سيما بالنسبة إلى لبنان، فمدينة ليون (Lyon) اهتمت بتجارة الحرير، وكانت مرسيليا (Marseille) تعيّن معظم القناصل بهدف تحسين التجارة بين فرنسا ودول المتوسّط، فالتجارة آنذاك لم تكن تختصّ بتجارة لبنان، بل أيضًا بالتجارة الداخلية من حلب، ومن إيران أحيانًا.

خصوصية الأرشيف الفرنسي

يرى الدكتور الحكيّم أن الأرشيف الفرنسي، من بين كل المحفوظات الأوروبية لتاريخ المشرق العربي/ الشرق الأوسط، هو الأهم، فمحفوظات بريطانيا أو ألمانيا أو بلجيكا وغيرها لا يمكنها منافسة هذا النوع من الأرشيف. ويضيف: "لم نكن نحتفظ بأرشيفنا حتى فترات طويلة، بينما كانت القنصليات الفرنسية تحفظه بشكل يوميّ".

لماذا يضمّ الأرشيف الفرنسي هذا الكمّ الهائل من الوثائق المتعلّقة بتاريخ منطقتنا؟ بالوثائق، يؤكّد الدكتور أنطوان الحكيّم أنَّ فرنسا هي أوَّل دولة أقامت علاقات دائمة مع الإمبراطوريَّة العثمانيَّة منذ مطلع القرن السادس عشر في عهد فرنسوا الأوَّل (1494 – 1547م)، وذلك مع السلطان سليمان القانوني (1494 – 1566م)، فتبادلا السّفراء، وكان سفير فرنسا في إسطنبول متقدّمًا على نظرائه جميعًا.

يومها، وُقّعت عهود الأمان لرعايا القنصليَّة وغيرها من القنصليات، وهي ليست إلا امتيازات، يراها المؤرّخ "تنازلات" من السّلطنة. تعود أصول هذه الاتفاقيات إلى القرن الخامس عشر، ويسمّيه العرب العهد الأول بين السلطان وملك فرنسا، ولكنّ الدكتور أنطوان الحكيّم يؤكّد أنَّ هذا الأمر الشّائع مخالف للحقيقة التي تثبتها الوثائق، إذ لا يمكن

للسّلطان أن يقبل به، لأنه يعظّم ملك فرنسا ويعطيه مشروع دولة، فالعهد الأول هو مشروع أنجزه الصدر الأوّل في العام 1535 ولم يُنفّذ، ولكن النص الأصلي بقي موجودًا في السفارة في إسطنبول. وعندما وُجد، أُطلق عليه اسم "العهد الأول"، بينما جاء العهد الأساسي في أواخر القرن السادس عشر، وأعطى فيه السلطان امتيازات للفرنسيين بالإبحار والتجارة وزيارة الأماكن المقدسة في فلسطين.. وإذا حدثت خلافات بينهم، يقوم القنصل الفرنسي بحلّها.

أسَّس الفرنسيون أرشيفهم بشكل متسلسل، فكلّ تقرير يتّخذ طابعًا سياسيًا يتمّ وضعه ضمن سلسلة معينة، وبحسب الترتيب الزمني. ومن ثم تأتي المراسلات القديمة، وهي سلسلة المراسلات التجارية، ذلك أنّ كلّ ما يتعلق بالبيع والشراء وغيره كان يقع ضمن سلسلة قديمًا... ثم تغيَّر هذا النظام، وأصبح تصنيف هذه المراسلات يجري بحسب الدول. إذًا، كان المعنيّون يعتمدون نظامًا معينًا في كلِّ فترة، وجاءت الحرب العالمية الأولى لتفرض تسلسلًا خاصًا بها.

ومما يلاحظ أيضًا، وجود سلسلة خاصة بالانتداب أو الاحتلال، كما أن جزءًا من وثائق الانتداب موجود في باريس بين المفوض السامي ووزارة الخارجية. أما الأرشيف الأهم، فهو الذي احتفظ به المفوض السامي هناك، لأن تقاريره اعتمدت على تقارير داخلية لم يكن يرسلها إلى باريس، فكان يقوم بتلخيصها ويرسلها إلى العاصمة. لذلك، فإن أرشيف المفوضية الذي كان في بيروت ونقل إلى مدينة نانت، مهم جدًا وغني بالتفاصيل مقارنة بالأرشيف الموجود في باريس.

نُقل أرشيف الانتداب من بيروت إلى مدينة نانت الفرنسية في العام 1968، وهو يتكون من نحو 4500 صندوق، ويشكّل مصدرًا أساسيًا لكتابة تاريخ لبنان في النصف الأول من القرن العشرين.



الدكتور أنطوان الحكيّم (الأول من اليسار) محاضرًا في الحركة الثقافية في إنطلياس - بيروت

يقول الدكتور الحكيّم: "يوجد في نانت وثائق من فترة الانتداب، أي من العام 1918 حتى العام 1939، ويتراوح عددها بين 5500 و6000 صندوق. مثلًا، هناك سلسلة باسم المكتب السياسي موجودة في صناديق من الرقم 362 إلى الرقم 1250. كانت كليكيا (Cilicia) تابعة لفرنسا. وبسبب حروب مصطفى كمال (1881 – 1938م)، تم التخلي عنها. يوجد 233 صندوقًا عنها، ويوجد حول الشؤون الإدارية 28 صندوقًا، المكتب الدبلوماسي 582 صندوقًا، الأمانة العامة للمفوضية 120 صندوقًا، الأمن العام 125 صندوقًا، والمخابرات 436 صندوقًا".

يعدّد الدكتور الحكيّم هذه الصناديق، ويضيف: "نحن نتحدَّث فقط عن الشرق الأوسط. وهناك أيضًا أفريقيا الشمالية والمغرب العربي، فالجزائر كانت مستعمرة، وأرشيفها موجود في مدينة إكس أبروفانس (Aix-en-Provence) بالأطنان. المغرب وتونس كانتا محميّتين. أرشيف المغرب وتونس موجود في نانت، لأنّ المحميات وبلاد الانتداب موجودة فيها. أما المستعمرات، فهي فقط في "إكس أبروفانس"، إضافةً إلى أرشيف وزارة الداخلية وأرشيف البحرية وأرشيف الجيش البري".

ويخلص الحكيّم إلى أن من الصعب حكمًا على أي باحث أو مؤرخ كتابة أي أمر عن تاريخ لبنان أو العهد العثماني من دون الرجوع إلى الأرشيف الفرنسي. وإذا أردنا الحديث بشيء من التفصيل علميًا، فإننا نرى أن أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية المتعلق بتاريخ لبنان في القرنين التاسع عشر والعشرين يقع على قسمين. الأول كان محفوظًا لدى الوزارة في (quai d'Orsay) في باريس، ثم نُقل قبل أعوام إلى مدينة (Lacourneuve) شمال العاصمة، والآخر موجود لدى مركز الأرشيف الدبلوماسي التابع لوزارة الخارجية في مدينة نانت.

الوثائق اللبنانية في الأرشيف الفرنسي

معظم الوثائق المتعلقة بتاريخ لبنان، والمحفوظة في باريس، تندرج في تسعة أبواب رئيسية. الأول هو مراسلات السفارة السياسية في إسطنبول: مجلداتها 563، منها 362 تحتوي وثائق القرن التاسع عشر، وهي ذات طابع عام، وتتطرق إلى قضايا تهم فرنسا وأوروبا في علاقاتهما مع السلطنة، ويعالج قسم منها المسألة اللبنانية من جوانبها كافة. الباب الثاني هو سلسلة مراسلات القناصل السياسية (Correspondance politique des consusuls)، التي تتضمن تقارير القناصل إلى الوزارة في باريس ومسودات أجوبة وتوجيهات كانوا يتلقونها، وهي تتناول شؤونًا سياسية داخلية وخارجية، يعالج قسم منها المسألة اللبنانية وتشعباتها، وخصوصًا أزمات الجبل في القرن التاسع عشر، والعلاقات بين الطوائف والشؤون الدينية والأوضاع الاقتصادية والاجتماعية. هذه التقارير تتوقّف عند العام 1896.

السلسلة الثالثة هي المراسلات القنصليّة والتجاريّة (Correspondance consulaire et commerciale)، وفيها معلومات اقتصادية تتعلق بحركة المرافئ وأنشطة التجار الأوروبيين والصادرات والواردات والإنتاج الزراعي وحركة النقل والمواصلات والأوضاع الصحية والأمنية.

أما الرابعة، فهي سلسلة المذكّرات والوثائق (Mémoires et Documents)، وهي على نوعين: تقارير ومراسلات عادية لا تتعدى بضع صفحات متنوعة المصادر والموضوعات، ودراسات مطوّلة أعدتها شخصيات مطّلعة على أوضاع السلطنة ولبنان بشكل خاصّ، وهناك عدد كبير منها مكرّس للأقليات والكنائس الشرقية بشكل عام، وللموارنة بشكل خاص.

القسم الخامس هو السلسلة الجديدة (1897 – 1914م) (Nouvelle Série). تضمّ هذه السلسلة 404 مجلدات مكرسة للسلطنة العثمانية، بينها 35 مجلدًا للبنان وسوريا وفلسطين، جمعت فيها المراسلات السياسية والتجارية.



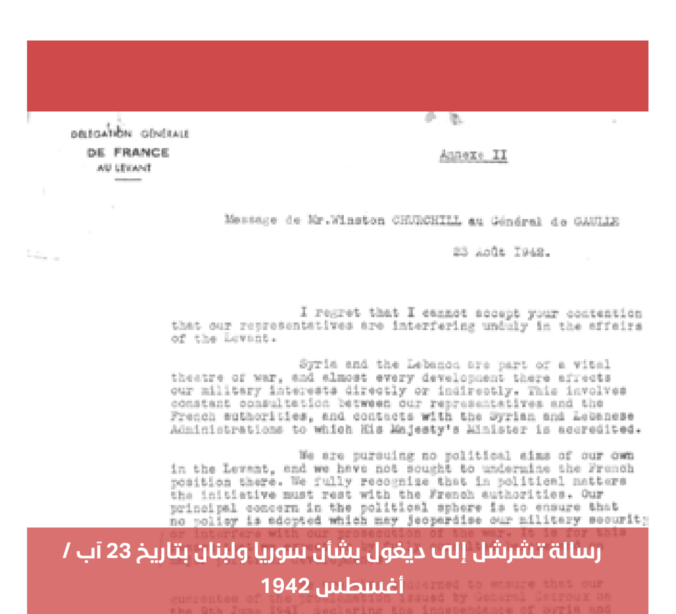
الدكتور الحكيّم (الأول من اليمين) خلال مؤتمر في جامعة ليون الثانية في فرنسا



خارطة مدينة حلب وضواحيها وضعها جغرافي فرنسي في العام 1811



الدكتور الحكيّم (الأول من اليسار) يحاضر في معرض الكتاب الفرنكوفوني في بيروت



DÉLÉGATION GÉNÉRALE
DE FRANCE
AU LEVANT

Annexe II

Message de Mr. Winston CHURCHILL au Général de GAULLE

23 Août 1942.

I regret that I cannot accept your contention that our representatives are interfering unduly in the affairs of the Levant.

Syria and the Lebanon are part of a vital theatre of war, and almost every development there affects our military interests directly or indirectly. This involves constant consultation between our representatives and the French authorities, and contacts with the Syrian and Lebanese Administrations to which His Majesty's Minister is accredited.

We are pursuing no political aims of our own in the Levant, and we have not sought to undermine the French position there. We fully recognize that in political matters the initiative must rest with the French authorities. Our principal concern in the political sphere is to ensure that no policy is adopted which may jeopardise our military security or interfere with our prosecution of the war. It is for this

... concerned to ensure that our guarantee of the proclamation issued by General Catroux on the 9th June 1941, declaring the independence of Syria and

رسالة تشرشل إلى ديغول بشأن سوريا ولبنان بتاريخ 23 آب / أغسطس 1942

أما السادس، فهو سلسلة الحرب (1914-1918)، التي تضم 170 مجلدًا مكرسًا للسلطنة العثمانية، من بينها 67 مجلدًا لسوريا ولبنان وفلسطين والحجاز.

وكانــت سلســلة المــشرق، ســوريا ولبنــان (1918 – 1939) (E-Levant, Syrie – Liban) تضـمّ وثائـق عـما سـمي بالانتـداب، وهــي القســم الســابع.

ويتمحور الجزء الثامن حول وثائق الحرب العالمية الثانية في ثلاث مجموعات، سلسلة فيشي – المشرق (Vichy – Levant)، سلسلة لندن (Londres)، وسلسلة الجزائر (Alger). وأخيرًا، كان القسم التاسع، وهو وثائق أفريقيا والمشرق (Afrique-Levant)، ويضم وثائق حديثة لما بعد الحرب العالمية الثانية.

مصادر لكتابة التاريخ اللبناني

أمـا الوثائـق المحفوظـة في نانـت، فهنـاك ثـلاث مجموعـات منهـا تتعلّـق بموضوعنـا. الأولى محفوظـات السـفارة الفرنسـية في إسـطنبول، وهـي مجموعـة ضخمـة مـن 2200 مجلـد، تغطّـي الحقبـة 1528 – 1914، وهـي تعـدّ مـن أغنـى المصـادر لكتابـة تاريخ السـلطنة بعد الأرشـيف العثماني، وفيها مراسـلات السـفراء مـع وزارة الخارجيـة في باريـس والبـاب العـالي ومراسـلاتهم مـع مختلـف القنصليـات المتواجـدة عـلى الأراضي العثمانية، مـن بينها قنصليـات صيـدا وبـيروت وطرابلـس. والثانيـة أرشـيف قنصليـات طرابلـس وصيـدا وبـيروت.

ويشير الحكيّم إلى أنّ أرشيف قنصلية طرابلس فُقِدَ، ما عدا ملفات ضُمت إلى أرشيف بيروت، ونُقل أرشيف صيدا إلى فرنسا في العام 1932، وهو مؤلف من 37 مجلدًا تغطي السنوات 1585 – 1826. ويبقى الأهم هو أرشيف قنصلية بيروت، وقد نقل إلى نانت في العام 1969.

ويتابع: "استولى الأتراك على قسم منه خلال الحرب العالمية الأولى، وهو مؤلّف من 404 مجلدات بين 1639 و1948، وفيه مراسلات مع الوزارة في باريس والسفارة في إسطنبول ومختلف القنصليات الفرنسية المنتشرة في الجوار وقنصليات الدول الأوروبية الأخرى، وفيه آلاف الوثائق المتعلقة مباشرة بتاريخ لبنان، يعالج بعضها المواضيع السياسية، والبعض الآخر المواضيع الاقتصادية والمالية والديموغرافية والاجتماعية والتربوية، وفيه ملفات عن سكك الحديد والمرافئ وشركات المياه والمصارف ومكاتب البريد والآثار والمدارس والجامعات..

أمّا الثالث، فهو أرشيف الانتداب، وهو مشترك بين لبنان وسوريا، وقد نقل من بيروت إلى نانت في العام 1968، ويتكون من نحو 4500 صندوق يتضمَّن كلّ منها عددًا من الملفات التي تعالج مسائل لها علاقة بتاريخ البلدين سياسيًا، عسكريًا، أمنيًا، اقتصاديًا، ماليًا، ثقافيًا، ودينيًا... وهو مصدر أساس لكتابة تاريخ لبنان في النصف الأول من القرن العشرين.

حقائق يكشفها الأرشيف!

لا تزال في كتاباتنا التاريخية مسائل غامضة وأخطاء شائعة، يتحدَّث المؤرخ عن مسألتين منها، وثّقها الأرشيف الفرنسيّ. المسألة الأولى هي حماية فرنسا لمسيحيّي الشرق، فهل كانت مطلقة؟ في بعض كتب التاريخ اللبنانيّة أو العربيّة، ثمة انطباع بأنَّ الدول الأوروبية كانت تهبُّ، لأدنى سبب، لنصرة الطوائف المسيحيّة داخل السّلطنة، وأنها حمت بعض أبناء هذه الطوائف لإخراجهم من سلطة الدول العثمانية.

يقول الحكيّم: "ولكن الحقيقة غير ذلك، فقد كان للحماية الدينية نوعان؛ أولهما حدَّده العثمانيون، بحيث لا يسمح السلطان للدول الأجنبية بحماية رعاياه من أهل الذمّة، والآخر رسمته الدول الحامية، ففرنسا لم تقبل الانجرار خلف مطالب مسيحيّي السلطنة، بل كانت تتصرَّف وفق مصالحها الخاصة، وبناء على نظرتها إلى الأمور، وهذا

ما فعلته في العام 1840، حين ثاروا على إبراهيم باشا المصري، وظنّ القنصل الفرنسي في بيروت بورييه Bouree أنَّ عليه تبنّي مطالبهم ومساندتهم، فكتب بذلك إلى حكومته، ما أثار غضب تيير (Thiers)، رئيس الوزراء ووزير الخارجيّة، إذ كان يستعد لخوض حرب ضد أوروبا مجتمعة، دفاعًا عن محمد علي وعن مركز فرنسا في الشرق، فكتب إلى بورييه رسالة تأنيب، بأن ما يقوم به لا يتّفق وخيارات الحكومة الفرنسية، وأنه يعالج الأمور من وجهة نظر ضيقة، لأن المُلِحّ ليس تأمين مستقبل الموارنة، بل معالجة المسألة الشرقية كاملة، وضمان المصالح الفرنسية العليا، فاستدعى تيير القنصل بوريه إلى باريس، وعيَّن مكانه ملواز (Meloizes)".

أما المسألة الثانية، فهي تتعلَّق بالشريف حسين، إذ يقال إنه كان يجهل مضمون اتفاق سايكس – بيكو قبل أن ينشر البولشفيك نصّه الكامل، فهل هذا صحيح؟ تؤكد الكتب التاريخية العربية أن اتفاق سايكس – بيكو ظلّ سريًّا، ولم يطّلع عليه زعماء العرب إلا بعدما نشر البولشفيك نصّه، لكن وثائق الأرشيف الفرنسي تقدم رواية مختلفة تمامًا، فتقول إن الإنكليز والفرنسيين في مطلع العام 1917 كلّفوا موقّعي الاتفاق المتعلق بالولايات العربية العثمانية، مارك سايكس (Mark Sykes) وفرنسوا جورج بيكو (François Georges-Picot) السفر إلى الحجاز، لإطلاع الشريف حسين وأبنائه على مضمون الاتفاق. وقد وصلا إلى جدّة في 18 أيار/ مايو 1917، واجتمعا مرارًا بالشريف حسين وأبنائه، وأبرق كل من جانبه رسالة إلى رئيس بلاده يعلمه فيه بتبليغ الملك بمشروع الاتفاق، وبأنه لم يظهر رد فعل يُخشى منها، كما اعتقدا.

ويؤكد الدكتور أنطوان الحكيّم أنَّ قوانين الاطّلاع على الأرشيف الفرنسي تقف عند محظورات محددة، فهناك وثائق يمنع أن تمسّ قبل 120 سنة، من مثل الوثائق المتعلّقة بحكومتي فيشي وديغول، والتي تثير الحساسية، وهي تخصّ الشعب الفرنسي، فيخشى المعنيّون أن تُثار البلبة مجددًا على خلفيتها.

ويختم قائلًا: "الوثائق التي نطَّلع عليها، تخضع لإشراف أشخاص متخصّصين بالأرشفة، فيطّلعون عليها أولًا، ويضعونها في الملفات. كما أنّ القانون يمنح صاحب كلّ وثيقة الحق في إزالة ما يريده منها، ما لم توضع بعد في متناول الجميع. يبدأ العمل في تبويب أولي يجري في القنصليات والسفارات، ويرسل بعدها إلى الأرشيف العام. وهناك يجري فرزها. الرسائل التي ترسل مباشرة من السفير إلى وزارة الخارجية، تمتلك السفارة نسخة عنها، والمحقق هنا عليه أن يطّلع على النسختين".

زينب الطّحان: أستاذة جامعيّة وكاتبة وصحافيّة لبنانية. تخصّصت في النّقد الأدبي والسّرد الروائيّ، وأعدَّت أطروحة الدكتوراه حول الهجرة والهوية في رواية "بدايات" لأمين معلوف. صدر لها كتابان حول آداب ما بعد الكولونيالية.

للتّواصل عبر الإيميل: riza_zein@hotmail.com



الواجهة الأمامية لمتحف سرسق في الأشرفية - بيروت

ديوان الذاكرة

متحف سرسق..
بيت حكايات الفنّ المعاصر والحديث

غفران مصطفى

يُطلّ القصر الأبيض الجميل من خلف بوابة حديديَّة. يكسر الزجاج الملوّن الذي يزيّن واجهات الطبقتين الأولى والثانية من رتابة الطلاء الأبيض. يقدّم الزائر إلى بهو القصر الخارجي، حيث يستقبلك رجل الأمن الذي يحرس هذا الصرح الثقافي الكبير. في الباحة الخارجية نفسها منحوتات ثلاث، إحداها لسيدتين مُتقابلتين تُمثلان التعايش الإسلامي - المسيحي في لبنان. تحمل الأولى صليبًا على رقبتها، وتحمل الأخرى نقشًا لآية قرآنية. جسَّدت السيدات معًا تمثال الشهداء حتى خمسينيات القرن الماضي، عندما استبدلت به بلدية بيروت التمثال الحالي الذي نحته فنان إيطالي.

صرح ثقافيّ فنيّ

يتألَّف المتحف من صالات عرض عدّة، إضافةً إلى القاعة العربية ومكتب نقولا سرسق. كانت القاعة العربيَّة في الأصل القلب الاجتماعي للدار، حيث استضافت زوّار نقولا سرسق، الذين كان من بينهم فنانون وكتّاب وشعراء وسياسيّون. سقف القاعة، كما جدرانها ونوافذها، والتي كانت في الأصل تُشرف على حديقة خلفية، مزدانة بألواح خشبية مزخرفة وملوّنة، يُرجّح أنها استُقدمت من دمشق في ثلاثينيات القرن العشرين.

تقع إلى جانب الصالة العربية صالة مجموعة فؤاد دباس للصور، تلك التي تُحفظ وتُعرض في متحف سرسق، وهي تحتوي مقتنيات فوتوغرافية تضم أكثر من 30 ألف صورة من منطقة الشرق الأوسط، تحديدًا من لبنان، سوريا، فلسطين، مصر، وتركيا، تعود إلى الحقبة الممتدة بين العام 1860 وستينيات القرن العشرين. تكوَّنت المجموعة على مدى عقدين من الزمن، أنشأها رجل شغوف بتكوين المجموعات، هو فؤاد سيزار دباس. وفي الطابق نفسه، يوجد مكتب نقولا سرسق، ففي تقسيم الدار السابق العائد إلى العام 1912، استخدم سرسق هذه الغرفة كمكتب خاص

به. ما زالت الغرفة تحتفظ بملامحها الأصلية، كبلاط الأرض، إضافةً إلى الأغراض وقطع المفروشات التي كان يملكها. تعكس الأغراض المعروضة في الغرفة شغف نقولا سرسق بالفنون، كما تشهد على مكانته الاجتماعية في ذلك الزمن.

إضافةً إلى هذه الغرف، يحتوي المتحف في الطابق الثاني ما يُطلق عليه "المجموعة الدائمة" المعروضة على جدران الطابق كلّه. أعمال المجموعة الدائمة التي اشتراها متحف سرسق أو وُهبت إليه منذ افتتاحه في العام 1961، عبارة في غالبيتها عن رسوم، وأعمال فنية غرافيكيَّة، ومنحوتات، وسواها من الأغراض الثلاثية الأبعاد. الطريقة التي عُلّقت بها المجموعة تجعلنا نقف أمام عشر حكايات ترويها كوكبة مختارة من 21 فنانًا يتحاورون أحيانًا حول موضوع واحد، أو يتحاججون فيدحض أحدهم آراء الآخر، أو يتجاهلون بعضهم بعضًا. وقد نُسجت هذه الروايات انطلاقًا من بحث أُجري في أرشيف متحف سرسق. يقترح البحث، وهو ليس شاملًا على الإطلاق، حكاية مجزّأة في الزمان والمكان. إلى جانب هذه الفصول العشر التي تُقرأ وكأنها أبواب مفتوحة على تأمّل أكثر أهمية، يُخصّص جزء للأعمال التي اشتراها المتحف، وتلك التي وهبت إليه في الأعوام الأخيرة. تسلّم متحف سرسق المجموعة المهمَّة للرسام جورج داوود قرم على شكل وديعة، ما يسمح بالتعمّق في الأبحاث عن هذا الفنان، ويُتيح الفرصة أمام الجمهور للاطلاع على مجموعة كاملة من الأعمال لفنانين مثل خليل زغيب، صوفي يراميان، ويلي عرقتنجي، شفيق عبود، جان خليفة، لور غريب، نبيل نحاس، وغيرهم.

مشاريع المتحف الثقافية

يُعتبر متحف سرسق، بحسب مديرة المتحف زينة عريضة، مؤسَّسة مستقلَّة ليست تابعة لعائلة سرسق، وليست صرحًا رسميًا تابعًا للدولة، ويعدّ، بحسب وصية صاحبه، وقفًا غير قابل للبيع. تقول عريضة إن سرسق حرص على أن يكون هذا البيت مفتوحًا أمام سكان بيروت خصوصًا، وكل المهتمين بالفنون عمومًا، من دون دفع أي تكلفة لدخوله. وتلفت إلى أن فكرة إنشائه تعود إلى ندرة وجود المتاحف الفنية في لبنان، فكان هدف سرسق هو تعريف اللبنانيين إلى الفن. اختار سرسق في وصيته تعيين كلّ من يشغل منصب رئيس بلدية بيروت متوليَ الوقف. ويعيّن رئيس البلدية بدوره لجنة مختصَّة لمتابعة شؤون المتحف. "في السنوات الأولى لافتتاح المتحف، كانت هناك قدرة مالية محدودة لإقامة المعارض الفنية، لكن مع تطور عمل المتحف، صار يحتاج إلى تمويل دائم، فاختارت بلدية بيروت اقتطاع نسبة من مشاريع البناء في بيروت وتقديمها للمتحف، لكننا نعمل اليوم على إيجاد مصادر تمويل إضافية بسبب تراجع أعمال البناء في بيروت، ما أثر في تمويل المتحف"، تقول عريضة.

وعن الأعمال التي يهتمّ باقتنائها أو إيداعها لديه، تشرح عريضة أنَّ أبواب المتحف كانت مفتوحة أثناء الحرب الأهلية، ولكنه لم يعمد إلى جمع أعمال عن الحرب. وفي المبدأ، فإنه يهتم بجمع أعمال الفنانين الذين يعدون مرجعًا في الفن المعاصر والحديث. وتلفت إلى أن اهتمامات المتحف تطوّرت خلال السنوات العشرين الأخيرة، بعدما غاب عن الساحة لثماني سنوات بسبب أعمال الترميم.

اليوم، أصبح دور المتحف أكثر تنوعًا، سعيًا للوصول إلى أكبر جمهور ممكن من المهتمين بقطاع الفن، وهذا الأمر ينسحب على اختيار موضوعات المعارض للوصول إلى شرائح متنوعة. في الطابق الأول من المتحف، توجد صالتان صغيرتان، وكذلك في الطابق الأرضي، تقام فيهم معارض لفنانين ترتبط أعمالهم بتاريخ الفن أو بالمجموعة الدائمة للمتحف، تشرح عريضة، إضافةً إلى إقامة معارض لفنانين مخضرمين وهواة أو لفنانين لم يسبق أن عرضوا أعمالهم من قبل، كالفنان جوزيف ساسين الَّذي استمرّ بالرسم لمدة 40 عامًا.

إضافةً إلى هذه المعارض، تقول عريضة إن المتحف يقيم كل سنتين

معرضًا يُدعى معرض الخريف، وهو من أهم معارض المتحف، ويعدّ من أولى أنشطته منذ افتتاحه، ويضمّ على نحو منتظم فنانين ناشئين ومكرسين في معرض يوجّه دعوة مفتوحة لتقديم الأعمال الفنية. وعلى هدى "صالون باريس" التاريخي، مثّل معرض الخريف على الدوام مكانًا أتاح للفنانين عرض أعمالهم الجديدة أمام جمهور عريض، كما تشير كلّ دورة من دوراته إلى الحال الراهن في الفن، وإلى التحولات الطارئة في مضماره. ويجمع معرض الخريف فنانين ونقّاداً وجمهورًا عريضًا، في نقاشات وسجالات حيوية تتناول حال الفن في لبنان. ويعدّ معرض الخريف الأهم بين المعارض الثلاثة التي تقام سنويًا في المتحف.

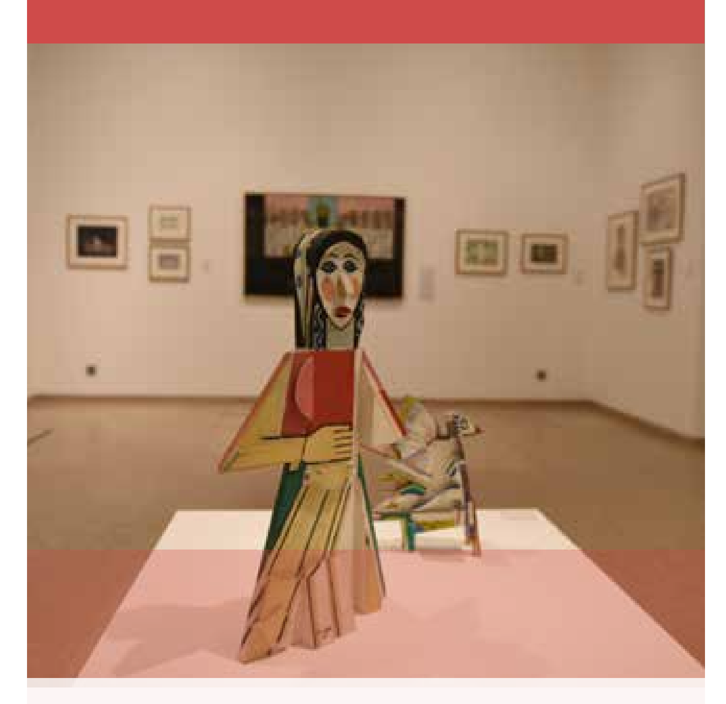
وعن اختيار الأعمال المشاركة في معرض الخريف، تقول عريضة إنها تتم عبر لجنة تابعة للمتحف تختار عددًا من الأعمال التي تتواءم وأهدافه. وقد تم اختيار 31 فنانًا لمعرض الخريف هذا العام، والذي سيُفتتح في شهر تشرين الثاني/ نوفمبر المقبل.

تُعتبر مكتبة متحف سرسق جزءًا مكملًا للمشاريع الثقافية والفنية التي كانت مُدرجة على قائمة مشاريع القائمين على المتحف منذ افتتاحه للعموم في العام 1961. يرتبط اسم متحف سرسق في الأشرفية بذاكرة بيروت منذ الستينيات وحتى اليوم، فيُعتبر أحد أهم المتاحف المعاصرة في المنطقة.

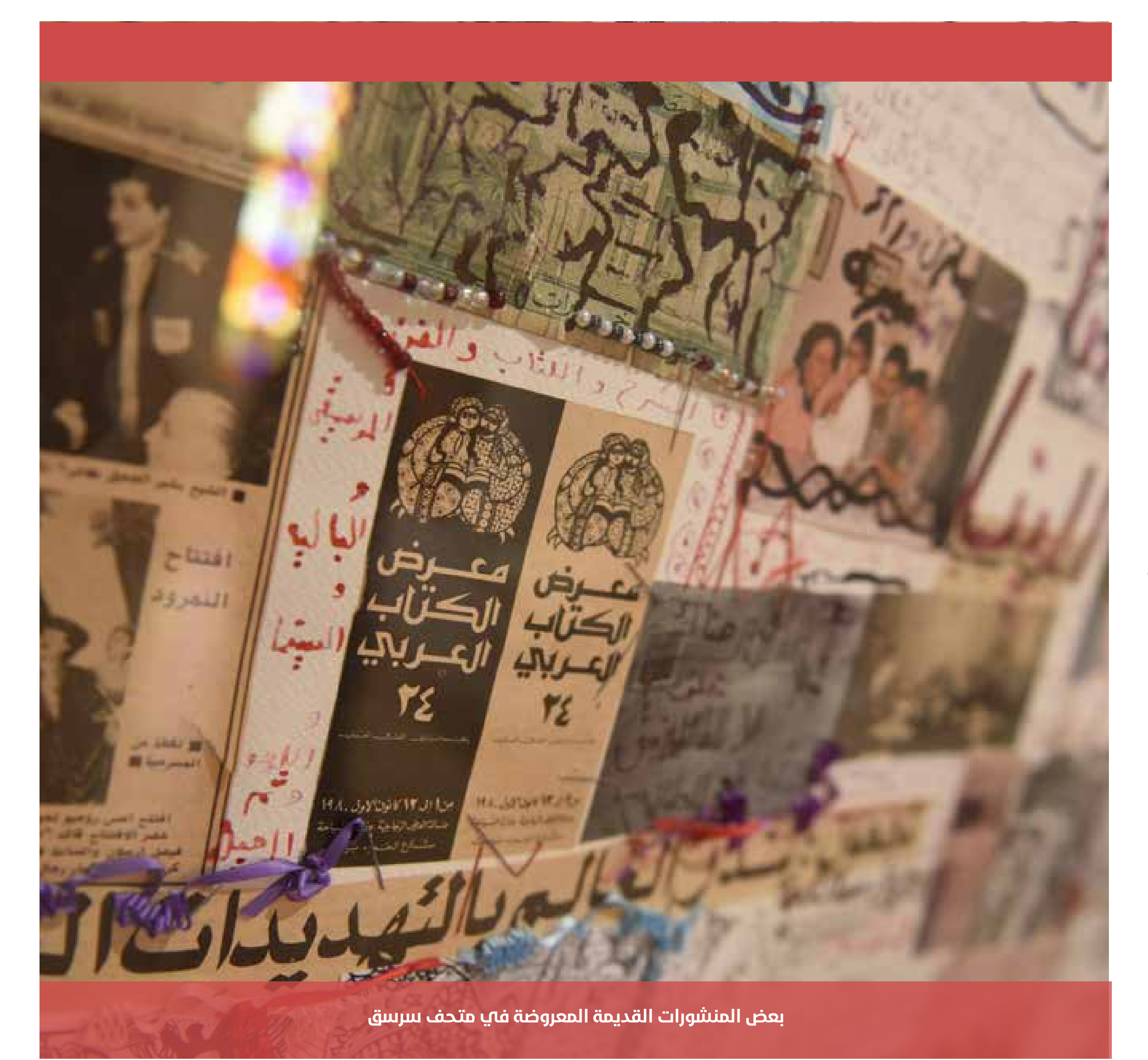
مكتبة فنيّة مرجعيَّة

يأخذك ممرّ طويل ساكن في الطابق السفلي الأول إلى مكتبة المتحف، تلك التي تمّ تشييدها خلال فترة ترميم المتحف بين العام 2008 والعام 2015، واستحداث الطابق الأرضي والأول والثاني وأربعة طوابق تحت الأرض، إذ كانت المكتبة عبارة

متحف سرسق وقف لبنانيّ، حرص صاحبه على أن يكون مفتوحًا أمام سكان بيروت خصوصًا، وكل المهتمين بالفنون عمومًا، لتعريف اللبنانيين إلى الفن.



إحدى القطع الفنية المعروضة في متحف سرسق



بعض المنشورات القديمة المعروضة في متحف سرسق

ألبومات تضم صورًا قديمة لبعض الآثار في لبنان



إحدى القاعات الخاصة في متحف سرسق



لوحة فنية (Collage9) تضم منشورات وصورًا قديمة

عن غرفة صغيرة تتضمَّن كتب نقولا سرسق الشخصية وبعض الكتب الأخرى. ومنذ العام 2015، بدأت المكتبة نشاطاتها بجمع الكتب وإقامة المعارض، وصارت مفتوحة للعموم.

تضمّ مكتبة سرسق المتخصّصة بالفنون المعاصرة والحديثة ما يقارب 4000 كتاب ومنشورات ودوريات. وتتنوّع مصادر المكتبة، بحسب القيّمة على المكتبة والأرشيف روينا بو حرب، فالمعارض التي تُقام في المتحف، من المعرض الخريفي السّنويّ إلى المعارض الدورية والمتنقّلة، تسبقها دائمًا عملية بحث كبيرة، فيتمّ اقتناء كتب متخصّصة بعنوان كلّ معرض، ويتم العمل على جمع قاعدة بيانات ومعلومات وكتب عن هذه المعارض، كالفنّ الإسلامي والأوروبي والمكسيكي والعراقي وغيرها، ليصار لاحقًا إلى حفظ هذه الملفات التحضيرية والكتب المقتناة بعد كلّ معرض في المكتبة.

تحكي بو حرب عن الجهد الَّذي يبذله فريق من المتحف في جمع المعلومات حول فنانين وحقبات فنيّة محدّدة، فبعض المعارض كانت تسلّط الضوء على أعمال فنان معيَّن، مثل الأعمال الفنية لجبران خليل جبران. ويتمّ جمع كل المنشورات عن أعماله وكل ما كان قد كتبه. "أحيانًا، تقام المعارض على أساس عنوان محدد، وأحيانًا أخرى تكون عبارة عن أعمال لفنان معين"، تقول بو حرب. في وقت لاحق، صار عمل المكتبة منظمًا أكثر، من خلال رصد المحتوى الذي ينقصها، وقد "خصَّصنا ميزانية سنوية للمكتبة لشراء الكتب منذ العام 2015، فقد تأتي إلينا مجموعات من الكتب عن فنانين أو حقبة فنية معينة، ولا تكون المعلومات كافية، فنعمد إلى شراء ما يكملها"، تضيف.

المورد الثالث للمكتبة هو التبرعات التي تتم من خلال عملية ممنهجة، "فالشرط الأساسي لقبولها هو أن تكون متكاملة ومتخصّصة بالفن المعاصر والحديث. منذ مدة، تبرَّعت مجلّة متخصّصة بالقضايا الاجتماعية كانت تصدر منذ العام 1941 حتى 2000، بأعدادها منذ العام 1975. لذا، نحاول اليوم استحصال الأعداد التي تنقصنا"، تقول بو حرب.

تُقدّم التبرّعات عادةً مؤسَّسات أو فنانون، من مثل المكتبة التي تبرع بها جورج جورج داوود قرم، حفيد الفنان داوود قرم، وغالبية الكتب فيها متخصصة بالفن الأوروبي في القرن التاسع عشر. وتلفت بو حرب إلى أنه، ومن ضمن نقاط القوة التي تتميّز بها مكتبة سرسق، وجود عدد كبير من المونوغراف (monographs) يسلّط الضوء على عمل فنان معين أو حقبة من حياته، وتحاول المكتبة التركيز على جمع أعمال أكبر عدد من الفنانين اللبنانيين، إضافةً إلى فناني أوروبا الكلاسيكيين.

هذه الكتب، بحسب بو حرب، صارت مرجعًا مهمًا وأساسيًا للباحثين وطلاب الجامعات في لبنان والخارج. ومن المصادر اللافتة للمكتبة، عملية التبادل بينها وبين عدد من المكتبات، من مثل مكتبة الجامعة الأميركية في بيروت، "التي نزوّدها بما ينقصنا، وتزوّد بدورها مكتبتنا بما ينقصها، أو يبادر أحيانًا فنانون إلى مدّنا بما ينقص مكتبتنا من أعمال تخصّهم أو تخصّ فنانين آخرين".

تلجأ مكتبة سرسق أيضًا إلى جمع منشورات المتحف عن كلّ المعارض التي كانت تقام فيه، فلديها مثلًا كتاب عن الفنّ الإسلامي يُعدّ، وفق بو حرب، من أبرز الكتب الجامعة لهذا الفن في المنطقة، وقد اشتغل عليه أناس من المتحف بالاستعانة بباحثين متخصّصين من خارج المتحف.

جانب من الصور المعروضة في متحف سرسق

مجموعات توثيقيّة مصوّرة

ومن الكتب التي تحتويها المكتبة، مثلًا، مجموعة فؤاد دباس (1930-2001) للصّور، المكوّنة من صور فوتوغرافية وبطاقات بريدية ومناظر مجسمة، إضافة إلى مطبوعات ورسومات، وكلّها تتعلَّق بالمنطقة. تشكّل مجموعة دباس، المستشرقة في طابعها، جزءًا مهمًا من مجموعة متحف سرسق، ما يبرز الدور الرئيسي للتصوير الفوتوغرافي في تطوير الفن الحديث في لبنان.

بنى دباس مجموعته على كتب مرجعية لمستشرقين أتوا إلى لبنان في القرن التاسع عشر، ووثّقوا رحلتهم بالصورة والكتابة. تُعيد صور دباس التذكير بزيارات المستشرقين لفلسطين ومصر وبيروت أوائل القرن الماضي، وبالوجود اليهودي في العاصمة اللبنانية. تشير بو حرب إلى أنَّ المتحف يستعير اليوم مجموعة دباس للصور لفترة محددة، وهي قابلة للتجديد، "وتعد الأبحاث التي جمعها دباس لهؤلاء المستشرقين من نقاط القوة لمكتبة المتحف، لأنها صارت تستقطب طلابًا يريدون إجراء أبحاث عن السياحة في تلك الحقبة أو عن العمارة والهندسة وغيرها".

إضافةً إلى مجموعة دباس، تلقَّت المكتبة في العام 2015 أرشيفًا مهمًا تبرَّع به الباحث في التراث والتحف ريشار شاهين، وهو يتألف من أعمال 418 فنانًا لبنانيًا (سيرة الذاتية، قصاصات من الصحف، صور لأعمال فنية، وثائق لمعارض ومشاريع لكلِّ فنان). كذلك، يحتوي صورًا توثيقية لبحث أجري حول موضوع "تراث بلاد الشام"، بما في ذلك الممارسات الأثرية والمعمارية والاجتماعية والممارسات الفنية ومعلومات أنثروبولوجية. يحتوي الأرشيف أيضًا جزءًا من مكتبة ريشار شاهين، بما في ذلك كتاب تاريخ الفن والأنثروبولوجيا والآثار والـ"antiquities". وتؤكّد بو حرب أنه يتم العمل على رقمنة أرشيف شاهين ليصير جاهزًا للتداول.

يعمل القيّمون على المتحف على جمع القصاصات الصحافية حول كلّ ما يتعلق بنشاطات متحف سرسق ومعارضه وفعالياته، وخصوصًا في الفترة التي سبقت افتتاحه في العام 1961، وعمدوا إلى ترقيم هذه القصاصات حتى تصير متاحة للعموم.



معارض أرشيفيّة متنوّعة

وإضافةً إلى معارض الفنانين، يخصّص المتحف أيضًا معارض تعنى بالأرشيف، فقد أقيم مؤخرًا معرض جمع أكثر من مؤسَّسة في لبنان تعنى بالأرشيف، من بينها الجامعة الأميركية، صحيفة L'Orient-Le Jour، المؤسسة العربية للصورة، مؤسسة الأبحاث الهندسية، و"AMAR" للأبحاث الموسيقية. وأضيفت إلى المكتبة مجموعات من الكتب ومقاطع الفيديو والكتيّبات التي عرضتها هذه المؤسَّسات عن مجموعاتها الصورية والفنية. وفي سياق المعارض الأرشيفيَّة، تقام أيضًا معارض لشخصيات تبرَّعت بأرشيف أعمالها للمكتبة أو بمقتنيات الغاليرهات التي تديرها، كآمال طرابلسي، التي تبرعت بأرشيف الغاليري الذي تملكه، والممتدّ من السبعينيات حتى التسعينيات.

في الطوابق العليا للمتحف، معرض ثابت يقدّم الأعمال الفنية التي احتضنها المتحف منذ افتتاحه في الستينيات، منها ما تم شراؤه من فنانين مميزين عرضوا أعمالهم في معرض الخريف، ومنها ما تم إهداؤه إلى المتحف. نتحدث عن "Les amours et les Jeux" لشفيق عبود (1979)، و"Le Mont Tamalpais" لإيتل عدنان (1985)، و"Portrait de Boutros Dagher" لخليل صليبي (1907)، وغيرها من الفنون التي تعود إلى القرن التاسع عشر والألفية الثانية.

تلفت بو حرب إلى أن بعض الوثائق في المكتبة ستصبح في غالبيتها رقمية، باستثناء الأبحاث التي لم ينشرها أصحابها بعد، حفاظًا على حقوق النشر. ومن المؤلفات التي تضمّها المكتبة، كتب متخصّصة بالعمارة، السينما، الفن المعاصر، فنّ الغرافيك والديكور، تاريخ الفن، علم الآثار، المتاحف، دراسات فنية، مجموعات لفنانين عرب وغربيين، ومجموعة فؤاد دباس.

غفران مصطفى: منتجة برامج في تلفزيون الميادين. حائزة على شهادة ماجستير في علوم الإعلام والتواصل من الجامعة اللبنانيّة في بيروت. نشرت عددًا من المقالات الأدبية والاجتماعية في جريدتي السفير والأخبار.

للتواصل عبر الإيميل: ghofran.moustafa@gmail.com



إحدى قاعات متحف سرسق في بيروت



كُتِبت المخطوطات الأولى على ألواح البردي. وبموازاته، عرف الرّقّ انتشارًا واستخدامًا أوسع

ثقافة أرشيفية

الكوديكولوجيا أو علم المخطوطات
نحو تأريخ صناعة المخطوط العربيّ والإسلاميّ

فاطمة البزال

الاطّلاع على مخطوطةٍ ما محفوظة في دير الإسكوريال (El Escorial) في إسبانيا يظهر لنا الكثير من الخبايا، وخصوصًا أنَّ هذا الدير يحفظ مجموعة نادرة من المخطوطات العربية التي أهداها مولاي زيدان سلطان المغرب إلى ملك إسبانيا، وحُفظت في مكتبة الدير على مرّ عصور كثيرة.

لن نُفاجأ إذا وجدنا مخطوطةً لأبي الفلسفة وعلم الاجتماع ابن خلدون، ولكنَّ رؤيتها بالعين المجردة وقراءة النصّ بخط ابن خلدون نفسه، يبعثان في النفس شعورًا غريبًا. لكوني عربيّة تتغنى بتراثها وتتحسَّر عليه، بعثت فيّ رؤية هذا المخطوط شعورًا بالفخر حينًا، وبالحسرة أحيانًا كثيرة، وخصوصًا عند مقارنة الماضي المجيد بالحاضر الأليم.

بالطّبع، نعرف أنّ للتاريخ أوجهًا شتى، فهو ليس حوادث تُروى وتُؤرخ فقط، ولكنّه حيّ من خلال الآثار التي تركها لنا الأولون في خطواتهم الأولى لتسجيل هذا الماضي وتوثيقه. فما هو دور الوثيقة، وهي الأثر الَّذي تركه لنا الأولون محملًا بالفكر والعلوم التي برعوا فيها، من علوم عامَّة وطبيعيّة وفلسفيّة وفنيّة وأدبيّة وغيرها؟ وما هو دور المخطوطات التي خطَّتها أنامل علماء وخطاطين منذ آلاف السنين؟ هل كانوا يرجون بهذا العمل متعةً شخصيةً أم كان الهدف نشر العلوم والمعارف التي يكتبونها على الورق؟ وهل يعتني دارس المخطوطات بالنصّ الذي تحمله فقط، أو أنَّ الأهمية الكبرى ترجع إلى المادة التي تحمل النصّ؟ وهل يقتصر إبداع الماضين على الفكر الذي قدَّموه، أو أنَّ ثمة دورًا لصناعة أدوات هذا الفكر؟

إنَّ دراسة تاريخ صناعة الورق والأحبار والجلود وأنواع الخطوط وغيرها من العناصر المرتبطة بصناعة المخطوط تجسّد هذا الإبداع وتؤسّس لتأريخه. وفي سبيل ذلك، نجد أنّ المستشرقين يتهافتون لسبر أغوار هذا العالم غير

المكتشف، من خلال دراستهم للمخطوطات العربية بكلِّ دقة، تساعدهم العديد من العوامل في هذه العملية، فمصائب قوم عند قوم فوائد! ومكتبات أميركا وأوروبا تحوي كنوزًا من المخطوطات العربية المحفوظة بأفضل الوسائل الممكنة، وهي بذلك تسهّل عملية الوصول إليها لدراسة عناصرها المذكورة.

لكن ما مدى إتاحة المخطوطات في مكتباتنا العربيَّة؟ وهل عملية الوصول إليها لدراستها سهلة وسلسة؟ نعوّل في الإجابة على هذا التساؤل على جهود مكتبيين طموحين في بلداننا العربية، وهم بعملهم يحاولون تجاوز كلّ العوائق المادية والإدارية للحفاظ على المخطوطات وتأمين إتاحتها!

يُقال "إنّ المعطيات التي يجمعها عالم المخطوطات، بصبر، هي المواد التي يمكن من خلالها مستقبلًا إعادة بناء تاريخ الكتاب المخطوط بالحرف العربيّ، كانعكاس صادق للظروف التي ولد فيها، الفكرية والاجتماعية والاقتصادية، وحتى التقنية " (ديروش، 2005 : 19). من هنا، من المؤكّد أنّ استعراض بعض العناصر المادية المكوّنة للمخطوط العربي الإسلامي، يؤسّس لمجموعة وصفيّة من العناصر التي يمكن استخدامها عند وصف المخطوطات من قبل المختصّين، وهو ما يساهم في تحديد الأساليب والمهارات المختلفة المستخدمة في هذه الصّناعة لدى الأقاليم والفئات المختلفة التي أتقنتها، ويساهم أيضًا في الوصول إلى تحديد ملامح هذه الصّناعة وتطوّرها عبر العصور وفي البلدان.

ينظر فرانسوا ديروش، وهو مستشرق رائد في دراسة المخطوطات العربية والإسلامية، إلى هذا العلم باعتباره يسعى في المقام الأول إلى تأسيس المعرفة الجيدة بالجانب المادي للمخطوط، أي الكتاب المخطوط المؤلّف من مجموعة كراسات، فالبنية التي تحدد موضوع علم المخطوطات، في رأيه، هي بنية الكتب التي لا زلنا نستخدمها إلى يومنا هذا (ديروش، 2005 : 13).

فما هي الأهداف التي نسعى إلى تحقيقها من خلال دراستنا للمخطوطات؟

أولًا، تبرز في هذا المجال دراسة مجموع التقنيات المستخدمة في صناعة المخطوط إلى أقصى ما يمكن من الدقّة، بغية الوصول إلى تحديد ألوان ورق معيّن وأليافه، وتحديد تأريخ استخدام هذه التقنيات المختلفة وأمكنتها. ولا ننسى هنا بناء سلسلة متماسكة من الوثائق التي يوضح بعضها بعضًا، فضلًا عن القيام بمجهود واسع ومحاولة ضبط التراث العربي الإسلامي في جميع مجالاته.

ليس غريبًا أنَّ علم المخطوطات يرتبط بمجموعة علوم أخرى موازية له، من بينها علم تطوّر الخطّ "الباليوغرافيا". فعلى الرّغم من أنَّ هذا العلم أخذ مسارًا مختلفًا عن علم المخطوطات، فسبقه من حيث تحديد بنيته وأساسياته، واحتل بذلك مكانة متميزة، ولكنّه مرتبط عضويًا به.

ولا شكّ في أنَّ دراسة جادة لتطور الخطوط المستخدمة، لا بدّ من أن تأتي من خلال دراسة المخطوط ككلّ. فكيف تتمّ دراسة المخطوط؟ وما هي العناصر التي ينبغي تحديدها من خلال هذا الفحص؟

يُعتبر فحص المخطوط الأصلي ملزمًا لتحقيق وصف دقيق وشامل وحقيقيّ له، لأنه يؤمن العناصر التي لا تستطيع صورة مستنسخة عن الأصل تأمينها للغاية عينها.

أما العناصر التالية التي ينبغي تحديدها، فهي:

- تحديد نوع الحامل: البردي، الجلد أو الرق، والورق، ودراسة خصائصها وتحديدها.
- تحديد عدد الكراسات وقياس المجلّد والتعرّف إلى طبيعة خياطته.
- دراسة التّسطير والأحبار وتحليل المقاطع الّتي حُذفت في حال كان بعضها محذوفًا.
- تحديد أساليب التّزيين والتذهيب والإيضاحات والرسوم التي تزيّن المخطوطات.
- تحديد طرائق التجليد وأنواع الجلود المستخدمة.

حوامل المخطوط

كُتِبت المخطوطات الأولى على ألواح البردي، وهي نوع من النباتات الَّتي تنمو على ضفاف النّيل، صنع منها المصريّون موادّ للكتابة، بحيث كانت نباتات البردي تعالج ويُستخرج منها صفائح رقيقة. وكانت هذه الصّفائح تُجمع ببعضها البعض بواسطة ألياف نباتيّة، فتشكّل صفيحة عريضة قابلة للكتابة.

وبموازاة استخدام البردي على ضفاف نهر النيل، عرف الرّقّ انتشارًا واستخدامًا أوسع نتيجة المادة الأولى المكوّنة له، وهي جلود الحيوانات. وبخلاف البردي الذي اقتصر إنتاجه على مناطق محدّدة، فقد كانت جلود الحيوانات متوافرة عالميًا، وكانت صناعتها سهلة نسبيًا. تُعالج جلود الحيوانات من خلال نقعها بسائل حمضيّ، ثم إزالة الشعر والدهون الملتصقة بالجهة الداخلية من الجلد.

بعد ذلك، يُشدّ الجلد بحبال ويُعلّق لينشف. تتضمَّن العملية أيضًا إزالة كل الشوائب الموجودة على الجلد، وإزالة الطبقات السميكة الملتصقة بجانبي الجلد، أي الجانب الخارجي وهو الشعر، والجانب الداخلي وهو اللحم. يميل الجانب الوبريّ إلى اللون الزهري، بينما يكون جانب اللحم أكثر بياضًا. تؤثّر مجموعة من العناصر، بحسب ديروش (2005)، في حالة المنتج النهائي المصنوع من الرق، وهي حالة الحيوان الصحّية، ومدى تعرضه لجروح أو كدمات أو غيرها، ونوعه (غزلان أو ماعز أو غنم)، وعملية الصناعة، ومهارة الصانع.

لقد أحدث انتصار المسلمين في معركة "طراز" على حاكم كوشا الصيني في العام 751م تحولًا كبيرًا في صناعة مواد الكتابة. تمَّ أسر مجموعة من صناع الورق الصينيين الَّذين جاؤوا بهذه الصّناعة معهم

إلى سمرقند، وأسَّسوا أول مطبخ للورق في سمرقند.

ارتبطت هذه الصناعة الجديدة بمواد أولية مختلفة، وهي النباتات، فكانت عجينة الورق تجهّز من أوراق التوت، وتُصبّ في قوالب خاصَّة وتُجفّف. ما لبثت هذه الصناعة أن انتشرت في كلِّ أصقاع العالم الإسلامي مع تأسيس مجموعة من مطابخ الورق من بغداد ودمشق شرقًا حتى أقاليم إسبانيا الإسلاميّة غربًا. وللورق المصنوع في بلدان شرق المتوسّط، وهي البلدان التي شهدت بدايات هذه الصناعة اليدوية، مجموعة من الخصائص التي تشير إلى طريقة الصناعة اليدوية. أحدث انتقال هذه الصناعة إلى بلدان غرب المتوسط، ومنها إلى مدينة فابريانو في إيطاليا، قفزة نوعية في طريقة الصناعة التي بدأت تتحوّل لكي تكون آليَّة بدل العمل اليدوي الخالص.

وللورق الشّرقيّ، أي المصنوع يدويًا في بلدان شرق المتوسط، مجموعة من الخصائص المميّزة له، والَّتي يمكن تحديدها عند دراسته في مختبرات مخصّصة لهذه الغاية. يحتفظ هذا الورق بمجموعة من العلامات التي تؤشّر إلى طريقة صناعته، بحيث تظهر صورة المخطوطة على لوحة الضوء، وهي آلة تنتج ضوءًا يتيح رؤية ألياف الورق وبنيته الداخلية، ومجموعة الخطوط الممدّدة والخطوط المتسلسلة. هذه الخطوط هي علامات أنتجها التصاق عجينة الورق بالقوالب الخاصة التي تصبّ فيها العجينة وتترك عليها لتجفّ. تكون الخطوط الممددة للورق الشرقي متعامدة مع خياطة مجموع الكراسات وجمعها في كعب الكتاب، بينما تكون الخطوط المتسلسلة موازية لها.

يُعتبر الورق الشرقيّ ذا خصائص غير ثابتة أو مستقرّة، نتيجة اختلاف أحجام القوالب المذكورة أعلاه وطريقة صناعتها. لذلك، يكون لدينا أوراق شرقية غير منتظمة بسبب اختلاف صانعيها ومهارتهم في طريقة صناعتها. تحتفظ الأوراق الشّرقيّة ببعض الألياف النباتية، وقد تظهر عليها علامات وخطوط القوالب بطريقة عشوائية، وهي لا تحتوي علامات مائية تذكر اسم صانعها وختمه، وهي أكثر سماكةً من الورق الغربي المصنّع.

وقد كان لتطوّر صناعة الورق في أوروبا أثر في خصائصها الماديَّة، بعد أن دخلت الآلات في عملية التصنيع. أنتجت مطابخ الورق الَّتي انتشرت في الأنحاء بعد وصولها إلى مدينة فابريانو في إيطاليا في العام 1264م ورقًا أكثر تجانسًا، بحيث تظهر خطوطه السلكيّة والمسلسلة بوضوح وانتظام قلَّ نظيرهما في الورق الشرقي. كذلك، تميّز هذا الورق بإضافة العلامات المائية إلى القوالب، والتي تترك آثارها في الورق. وتُعبّر العلامة المائية عن هُويّة صانع الورق، وهي عبارة عن أشكال معيّنة أو أحرف تعرّف عنه.

كراسات المخطوطات

إنّ طريقة جمع الأوراق في المخطوطة مرتبطة بتقنيات مختلفة باختلاف مكان المخطوطة وطبيعتها، فبينما اعتبرت المخطوطات الشرقية بمعظمها خماسية، كانت للمخطوطات المنتجة في بلدان غرب المتوسط بنية وتركيبة مختلفة. مهما تكن البنية، فإنَّ أساسها مرتبط بجمع محدد للأوراق وطويها بطريقة تأخذ في الاعتبار حجم الكتاب المادي وكمية النصّ الذي يحمله.

يُجمع المخطوط على شكل كراسات محدّدة، ويعرّف الكراس بأنه "مجموع الأوراق المزدوجة المتداخلة بعضها ببعض، يجمعها مرور خيط واحد في التجليد"، وتعرّف الورقة المزدوجة باعتبارها "قطعة مستطيلة من المادة المستخدمة مطوية إلى نصفين" (ديروش، 2005 : 123).

بهذه العمليَّة، نؤسّس لمجموعة من الكراسات بحسب عدد الأوراق المزدوجة فيها، فالكراس الأحادي يتألّف من ورقة مزدوجة واحدة

مطويّة إلى نصفين، والثّنائية من ورقتين وهكذا. وتكون الوحدة الكبرى هي الكراس الثماني المؤلّف من ثماني أوراق مطوية.

إنَّ تحديد عدد الكراسات وطبيعة الكراس الواحد يعدّان عنصرًا أساسيًا في وصف المخطوطات، فيتمّ تحديد عدد الكراسات بالأرقام العربيّة، يتبعه رقم الكراس بالحروف الرومانية، ثم عدد الصفحات كما هو محدّد في المخطوط بذاته. هذه العملية تبدو واضحة في مثال 60) 6V)، الَّذي يعني مخطوطًا مؤلفًا من ستة كراسات خماسية تؤلف ستين صفحةً.

التسطير وإخراج الصّفحة

إنَّ عملية إعداد الصفحة وتهيئتها لاستقبال النصّ يعدّ فنًا هندسيًا بحدّ ذاته، فقبل البدء بعمليّة النسخ تنظم الصفحة باعتبار طبيعة النصّ الذي سيُكتب عليها. لذلك، تسطر الصفحة بعدد محدّد من الأسطر، وتحدّد المسافات على هوامش الصّفحة كافّة. في المخطوطات المصنوعة من الرق، تُستخدم آلة تسمى "المنحت"، وهي عبارة عن سنّ جافّ، للحصول على علامات أو أسطر على الرقّ توجّه الكتابة عليه. إثر إنتاج الورق المصنوع من ألياف النباتات، أصبحت الورقة تسطّر بآلة تسمى "مسطرة"، وهي عبارة عن إطار خشبي فيه مجموعة من الخيوط المصنوعة من جذوع النباتات موصولة بجانبي الإطار. يوضع هذا الإطار تحت الورقة، ويتم فرك الصفحة أو حكّها بأصابع اليد، فتترك هذه الخيوط آثارها في الورق إثر هذه العملية.

يُعدّ التسطير مهمًا لإنتاج سطور مستقيمة ومنتظمة، وهو بذلك يحدّد طريقة كتابة النص والهوامش ومكان الزخارف فيها، وبالتالي يساهم في توجيه عمل المزخرفين.

المعطيات التي يجمعها عالم المخطوطات، بصبر، هي المواد التي يمكن من خلالها مستقبلًا إعادة بناء تاريخ الكتاب المخطوط بالحرف العربيّ.



خبراء يفحصون إحدى المخطوطات لتحديد تاريخها

أنواع الخطوط

للخطّ المستخدم في المخطوطة أهمية كبرى في تحديد تاريخها، لأنَّ الخط العربي تطوَّر كثيرًا مع الزمن، وهذا ما تظهره أنواع الخطوط العربية الكثيرة التي تزخر بها المخطوطات. لذلك، صار للخطوط القديمة علمها الّذي يدرس تطوّرها مع الزمن، ويُسمى "باليوغرافيا". ويستطيع الخبير الببليوغرافي أن يحدّد زمن كتابة ما وتاريخها وأصلها. استُخدم الخطّ الحجازيّ والكوفيّ في أوائل المخطوطات العربية، وهذان الاسمان يشيران إلى المنطقة الجغرافية التي ينتميان إليها، أي الحجاز والكوفة.

إلى ذلك، أحدث تطوّر الخطوط إثر استخدامها في أكثر من منطقة وزمان نشأة العديد من الخطوط الأخرى، ومنها النستعليق في بلاد فارس، والديواني في بلاد الأتراك. ترجع تسمية الخط الديواني إلى ديوان السلطان العثمانيّ، لكونه استخدم بكثرة في المراسلات السلطانية. كذلك، يُعبّر الخطّ المغربيّ عن ميزة بلدان المغرب العربي الواقعة غرب البحر الأبيض المتوسّط. ويُعتبر خط النسخ من أكثر الخطوط استخدامًا، وهو لا يزال مستخدمًا إلى اليوم، بخاصَّة في النصوص القرآنية.

الزّخرفة والتّجليد

إضافةً إلى الخطِّ الَّذي يشكّل لوحة فنيّة على الورق، نتيجة جمالية الخطوط العربية كافّة وفرادتها، فقد أضافت الزخارف جمالية إلى المخطوطات، من خلال الرسوم والأشكال التي صاحبت النصّ. لم تتم إضافة الرّسومات في المخطوطات الأولى، بل انتشرت مع انتشار المنمنمات في البيئتين العثمانية والفارسية. وبينما كان العثمانيون يضيفون رسومًا للزهور والنباتات فقط، كان الفرس يضيفون رسومًا للحيوانات أيضًا. بذلك، نجد أنَّ هذه التأثيرات التركية والفارسية جعلت المخطوطة قطعة فنية.

وللتَّجليد أيضًا فنّه الخاص، فهو إضافةً إلى تحقيقه الغاية الأساس منه، والمرتبطة بحماية المخطوطة من التلف، نجد أنه أضاف للمخطوطة رونقًا، وعبّر من خلال طريقة صناعته عن الفترة الزمنية التي كُتبت فيها. فكما أنَّ طبيعة الورق والخطّ تشكّل مؤشرًا مهمًا لتحديد تاريخ المخطوطة، يمكننا أن نضيف التَّجليد كعنصر يصاحب هذه العناصر.

تطوَّرت صناعة جلود الكتب، وتطوَّرت معها أساليب تزيينها وتزويقها وزخرفتها، لكونها أوَّل ما تقع عليه العين من المخطوطة، فطريقة صناعة الجلود موازية ومرتبطة بنوع الورق، كما بالخطِّ المستخدم. بينما كانت الجلود الأولى مصنوعة من قطعة رقيقة من الخشب مغطّاة بقطعة من جلد الحيوان من دون أي إضافات أخرى، كان لتطور الصناعة تأثير كبير في شكل الجلد. أضيفت بعض الزخارف على الجلد، وكانت بدايتها على شكل إطار ذي حواف أو جوانب مائلة، ثم أضيفت الرسوم والزخارف والأشكال الهندسية لاحقًا.

دراسة هذه العناصر متعة كبيرة لخبير المخطوطات الذي يستطيع من خلالها أن يجمع معلومات جديدة ويوثقها ويستخدمها في سياق الوصول إلى تحديد تاريخ هذه الصناعة الحرفيّة وأساليب تطورها عبر العصور وفي البلدان.

ولا شكّ في أنَّ التراث العربي غنيّ بغنى الإنسانية جمعاء، ومخطوطاته موزّعة في شتى أصقاع الأرض، نتيجة عوامل شتى. لذلك، فإننا، كمهتمين بالحفاظ على هذا التراث، نتحمل مسؤولية كبرى تجاه الحفاظ على صناعته أيضًا.

قد تساهم دراسة هذه العناصر بتراتبيتها المعروضة أعلاه في سبر أغوار هذه الصّنعة والحرفة، وتقع هذه العملية على عاتق المكتبيين والأرشيفيين، باعتبارهم متخصّصين في دراسة هذه المخطوطات والحفاظ عليها.

المراجع:

1. جاسك، آدم، المرجع في علم المخطوط العربي، القاهرة، معهد المخطوطات العربية، 2016.
2. ديروش، فرانسوا، المدخل إلى علم الكتاب المخطوط بالحرف العربي، لندن، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، 2005.
3. شقرة، ليندة، علم المخطوطات أو الكوديكولوجيا، مجلَّة الكتاب، عدد 3، 2007.

فاطمة البزال: اختصاصيَّة في مجال المعلومات والمكتبات، ومفهرسة في مشروع النهوض بالمكتبة الوطنية اللبنانيَّة. حائزة على ماجستير في إدارة المعلومات، وهي مدربة في مجال الفهرسة والتكشيف الموضوعي.

للتواصل عبر الإيميل: fatimaalbazzal@gmail.com



اللورد كرزون وزوجته وطاقم عمله في رحلته إلى الخليج في العام 1903م

وثيقة وحكاية

اللورد الإنجليزي جورج ناثانيل كُرزون والسّؤال الفارسيّ

د. محمد السلمان

بعد سنتين من دفنه في إحدى المقابر الإنجليزية في العام 1925م، وبعد حوالى 27 عامًا من وجوده في الحياة السياسيّة كأحد رجال الحكم في الإمبراطوريَّة البريطانيَّة لما وراء البحار، كُتِبت على قبره العبارة التالية: "أدّى التواضع إلى أن يجعل منه رجلاً".

فمن هو هذا الرجل الإنجليزي؟ وهل كان كذلك فعلاً؟ وما علاقة هذه الشخصية بوثيقة هذا العدد؟

الرجل الإنجليزي هو اللورد جورج ناثانيل كُرزون (1859 - 1925م) (George Nathaniel Curzon)، الذي عُرف بلقب "لورد كُرزون من كلدستون" ما بين العام 1898 والعام 1911م، وحمل لقب "إيرل كُرزون من كدلستون" في الفترة الممتدة بين العام 1911 والعام 1921م.

لسنا هنا في صدد الحديث عن شخصية هذا اللورد، فقد كُتب عنها الكثير بالتّفصيل، وخصوصاً ضمن كتاب "حياة اللورد كُرزون"، الذي كتبه إيرل رونالدشا في العام 1928م، مستعرضاً سيرة حياته وسياسته، وخصوصاً خلال السنوات السبع التي قضاها في الهند نائباً عن الملك في إدارة المستعمرات، بما فيها الخليج والجنوب العربي، مع بعض النقد الذي احتواه الكتاب لكُرزون، باعتبار أن سلوكياته متفاخرة تغلفها الغطرسة، والتعصّب، وحدَّة الرأي، والاعتزاز بالنفس كثيراً. وقد صدر الكتاب العربي بترجمة محمد عدنان السيد، ومراجعة وتحرير د. أحمد إيبش، عن هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، دار الكتب الوطنية في العام 2013م.

كما كُتب عنه مؤلف آخر هو "كُرزون: رجل الدولة الإمبراطوري"، لديفيد جلميور في العام 2006م، دافع فيه عن

وثيقة وحكاية

هذه الشخصية الإنجليزية الغريبة والعجيبة. وعلى الرغم مما ذكره في كتابه بأنَّ كُرزون كان رجلاً يفتقد إلى السلوك الجيد، وكان مزعجاً حقاً، لكنه في الوقت نفسه جدَّد آثار الهند العظيمة!

إننا نشير هنا فقط بدايةً إلى سياسة كُرزون في المشرق العربي الإسلامي الَّذي وقع تحت السيطرة الاستعمارية المباشرة، كالهند ومناطق أخرى، أو غير المباشرة بعنوان الحماية من أعداء بريطانيا، وهو ما طُبِّق في الخليج والجنوب العربي تحديداً. تلك السياسة بدأت مع تولّيه منصب نائب الملك البريطاني في الهند حاكماً للهند الإنجليزية في الفترة ما بين 1898-1905م، واضعاً نصب عينيه مصلحة بريطانيا العليا فقط، وتثبيت دعائم إمبراطوريتها التي كانت الشمس لا تغيب عنها، كما يُقال، والَّتي شدَّد خلالها كُرزون القبضة العسكرية والإدارية البريطانية على مستعمرات بريطانيا ما وراء البحار في المحيط الهندي والخليج. وقد أفرزت في منطقتنا الخليجية نظام الوكلاء الإنجليز من العسكريين الَّذين حكموا المنطقة بشكل مباشر، وإن كان نيابةً عن المقيم البريطاني في الخليج.

اتَّضحت سياسة هؤلاء الوكلاء أو المعتمدين الإنجليز، ومعهم بعض المستشارين كذلك، بعد العام 1900م، بشكل واضح في البحرين، التي كانت قد عرفت قبل حوالى قرن نظام الوكلاء المحليين الَّذين تعيّنهم سلطات الهند البريطانية الاستعمارية منذ العام 1816م، وكذلك في الكويت وعُمان وساحل الإمارات، حيث عيّنت بريطانيا أول معتمد سياسي إنجليزيّ لها في البحرين في العام 1901م، وهو الرائد جاسكن، وعيّنت في الكويت العقيد نوكس في العام 1904م.

توجّه كُرزون إلى هذا التنظيم بعد أن قام خلال فترة ولايته للهند بزيارته المشهورة لمنطقة الخليج ومشايخها، بموافقة الحكومة المركزية في لندن في شهر تشرين الثاني/ نوفمبر من العام 1903م، والتي كان من أهم أهدافها: تفقّد المؤسسات الهندية البريطانية في الخليج، ولقاء شيوخ الإمارات الصغيرة آنذاك في الساحل المتصالح (الإمارات الحالية اليوم)، والبحرين، والكويت، ومسقط، التي كبَّلتها بريطانيا بمعاهدات مقيدة سابقة، إضافةً إلى تثبيت النفوذ البريطاني في الخليج وبسطه سياسياً وتجارياً، وإن كان بالقوة العسكرية.

وقد استقلَّ السفينة الملكية المعروفة بـ "إس. إس. هاردينـگ" أو "أرگونوت"، في تلك الرحلة الخليجية، من ميناء "كراتشي"، ومعه زوجته الثانية "گراس إلفينا"، بمرافقة أسطول ضخم من السفن الحربية البريطانية.

قام كُرزون بثلاث رحلات طويلة خلال حياته، أنتجت ثلاثة كُتب معروفة هي "روسيا في آسيا الوسطى"، و"فارس والسؤال الفارسي"، و"مشاكل الشرق الأقصى". وما نرمي إليه في وثيقة العدد هو القسم الخاص بالبحرين في أهمّ كتاب تركه كُرزون، وصدر خلال حياته في كلّ من لندن ونيويورك العام 1892م، وهو "فارس والسؤال الفارسي" أو "بلاد فارس والشأن الفارسي".

يتكوّن الكتاب من مجلَّدين ضخمين، الأول يتألف من 639 صفحة، والآخر من 653 صفحة. وهنا، سوف نستطلع ما ورد في المجلد الثاني في الفصل 27، الذي عُنون بالخليج، حول جزر البحرين التي زارها كُرزون لاحقاً في مطلع القرن العشرين في العام 1903م، ضمن زيارته التاريخية لمنطقة الخليج وإماراتها، وما أسفر عنها من قرارات وترتيبات إدارية مهمة جداً.

في هذا الفصل، يقول كُرزون عن البحرين في هذه الوثيقة: "إنَّ الإدارة العثمانية في القطيف، ممثلة بمتصرف الأحساء التركي، كانت تحاول دائماً مدَّ سيطرتها على جزر البحرين، باعتبار أن هذه الجزر بقيت مستقلَّة عن الأحساء منذ ما يقارب 100 عام حتى تلك السنوات"[1].

وعند ذكره جزر البحرين وشهرتها بأنها تتمتَّع بأفضل مصائد اللؤلؤ

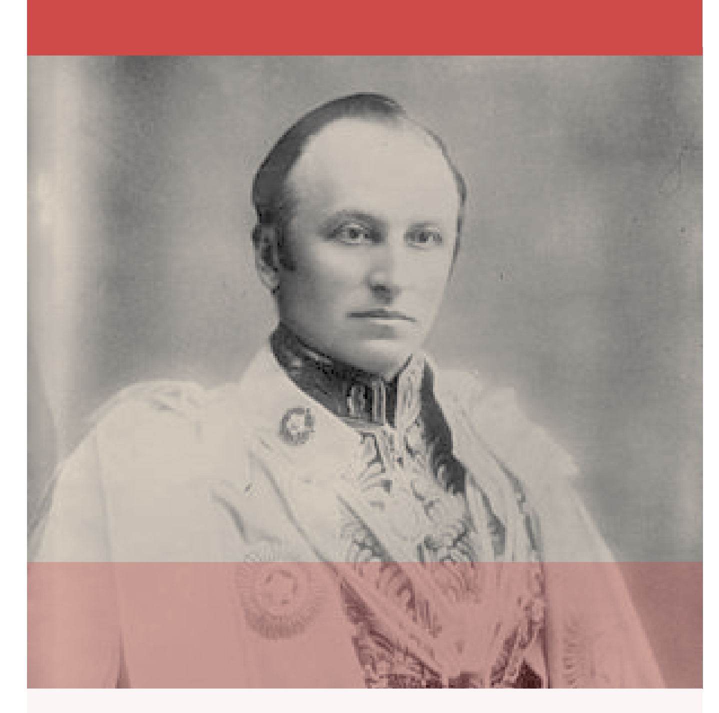
في العالم، مقارنة بلؤلؤ جزيرة سيلان، يضيف في هامش الحديث عنها معلومات تاريخية عن حضارتي دلمون وتايلوس، وعلاقتهما ببلاد الرافدين، وسبب تسميتها بالبحرين، وأنَّ أكبر جزرها هي البحرين والثانية المحرق.

كما يذكر أنه في نهاية القرن التاسع عشر للميلاد، كانت هناك مدينتان مهمتان فقط في البحرين، هما المنامة والرفاع، والأخيرة تقع على هضبة تبعد 7 أميال إلى داخل الجزيرة. ثم يورد كُرزون معلومة عن وجود 360 مدينة وقرية في البحرين، نقلاً عن كارستن نيبور. ثم يُعرج على السيطرة البرتغالية على الخليج والبحرين، ذاكراً أن البرتغاليين سيطروا على ميناء البحرين، وكذلك الميناء المقابل لها على الضفة الشرقية للجزيرة العربية، وهو القطيف، بهدف السيطرة على تجارة اللؤلؤ في المنطقة.

ويقول إنَّ القلعة التي سُميت باسم البرتغاليين ما زالت موجودة وشاهدةً عليهم، كما يؤكّد وجود مشهد ذي المنارتين، كما يسميه، أي مسجد "الخميس"، وهو يُثبت الفترة الإسلامية التي عاشتها الجزر. ويشير إلى اكتشافات الأثري ثيدور بنت في البحرين في العام 1889م، ثم يورد معلومات ووصفاً لصيد اللؤلؤ ومصائده في البحرين ومواسم صيده، ويشير إلى أن صيد اللؤلؤ والضرائب التي تفرض عليه تشكِّل المورد الرئيس للشيخ الحاكم للجزيرة.

ويُضيف أنه في مصائد اللؤلؤ الغنية في مياه البحرين، يتواجد سنوياً حوالى 4500 مركب لصيد اللؤلؤ من جميع الأحجام، منها 2000 من ساحل إمارات عُمان الشمالي، و1500 من البحرين، و1000 من مناطق بين الكويت وشبه جزيرة قطر. ويحمل كل مركب على ظهره ما بين

يتفاخر اللورد الإنكليزي كُرزون في آخر ما كتبه عن البحرين، بأنَّ خلاصة الحكمة السياسية الذي اتبعتها بريطانيا العظمى في الخليج، تمثّلت في أنموذج البحرين السياسي.



صورة للّورد كُرزون في فترة شبابه

14-5 رجلاً لمهنة الغوص. وفي المجموع العام، هناك حوالى 30 ألف إنسان من هذه المناطق العربيَّة يعملون في هذه السفن بمهنة الغوص. وهذه المهنة تواجه صعوبات جمة، أهمها مواجهة الموت في البحر عند الغوص لعدة أسباب. وقد تُوفِّي 250 رجلاً في العام 1885م بسبب أخطار مهنة الغوص [2].

ويستمرّ كُرزون في الحديث، في صفحتين متتاليتين في هذا الفصل من كتابه، عن مهنة الغوص في البحرين، من حيث الصعوبات، وأنواع الغوص وأرباحه، ومقارنة لؤلؤ البحرين بمثيله في سيلان، وتفوّق البحريني عليه من حيث الحجم والاستدارة والنقاوة.

ويعرض إحصائية عن أرباح تصدير اللؤلؤ بين العامين 1888-1889م في أسواق البحرين والساحل العربي في غرب الخليج، بحوالى 430 ألف جنيه إسترليني، يعود ثلثاه إلى البحرين فقط، ما يدل على غناها مقارنة ببقية مناطق الخليج الأخرى [3].

كما يورد كُرزون في الصفحتين 457-458 من المجلَّد الثاني من كتابه، معلومات عن الغزوات والأطماع التي تعرَّضت لها جزر البحرين، سواء من قبل القبائل العربية في عمان وشبه الجزيرة العربية، أو الفرس على الساحل الشرقي من الخليج، أو الأتراك العثمانيين من موقعهم في العراق والأحساء.

ويؤكّد أنهم كانوا جميعًا يتطلَّعون إلى البحرين لاحتلالها، نظراً إلى موقعها الاستراتيجي في الخليج وثرواتها، من اللؤلؤ والزراعة والمياه العذبة، حتى نجحت بريطانيا في السيطرة على البحرين أخيراً، كما بقية إمارات الخليج، عبر اتفاقيات طويلة للحماية والعلاقات المتبادلة مع شيوخها، وخصوصاً بعد سيطرة العتوب على هذه الجزر في العام 1783م.

وبدأ توقيع بريطانيا على اتفاقيات السلم العامة في العام 1820م، واتفاقية منع تجارة الرقيق في العام 1847م، وصولاً إلى اتفاقية العام 1861م، والنقلة الأسرية للحكم التي تدخلت فيها بريطانيا مباشرة بين الأخوين محمد بن خليفة بن سلمان آل خليفة وعلي بن خليفة حتى العام 1867م.

ويتفاخر كُرزون في نهاية ما كتبه عن البحرين، بأنَّ خلاصة الحكمة السياسية الذي اتبعتها بريطانيا العظمى في الخليج، تمثّلت في أنموذج البحرين السياسي [4].

المراجع:

1. انظر:

Curzon, George N., Persia and The Persia Question (London, 1892), Vol. II, p. 455.

2. انظر:

Curzon, George N., Persia and The Persia Question, Vol. II, p. 456.

3. انظر:

Curzon, George N., Persia and The Persia Question, Vol. II, p. 457.

4. انظر:

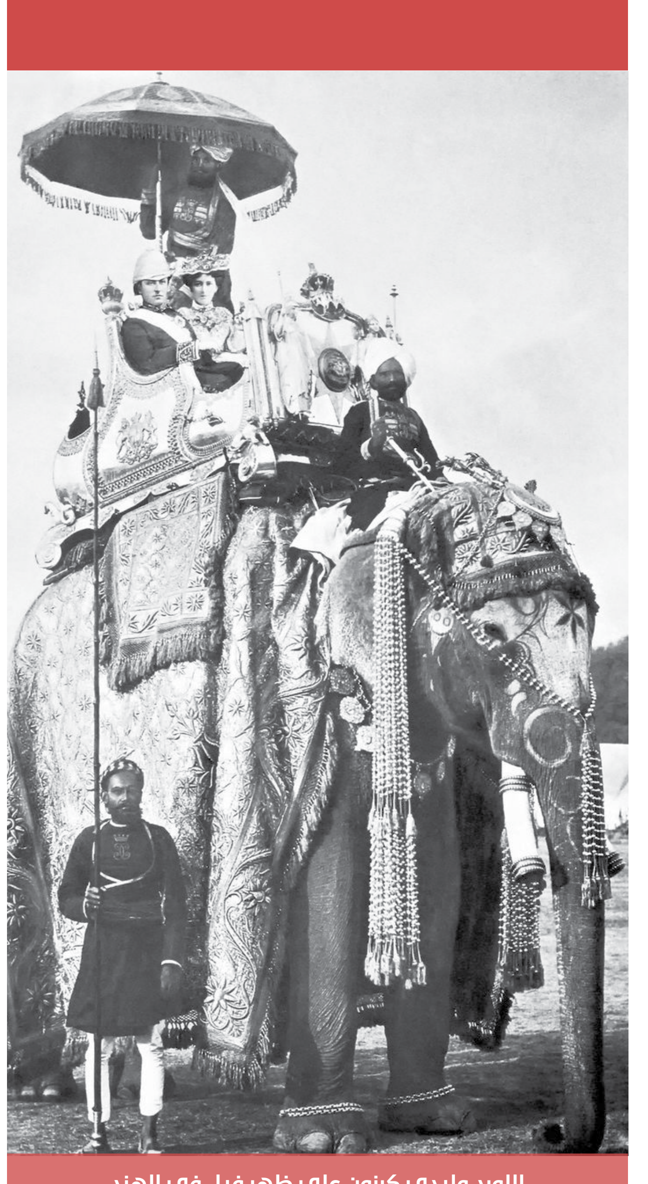
Curzon, George N., Persia and The Persia Question, Vol. II, p. 458- 459.

د. محمّد السّلمان: باحث بحريني متخصّص في التاريخ، أعدّ أطروحة دكتوراه في جامعة «هال» البريطانية حول المظاهر السياسية والاقتصادية للحكم البرتغالي في الخليج. صدرت له مجموعة من الكتب التاريخية والترجمات.

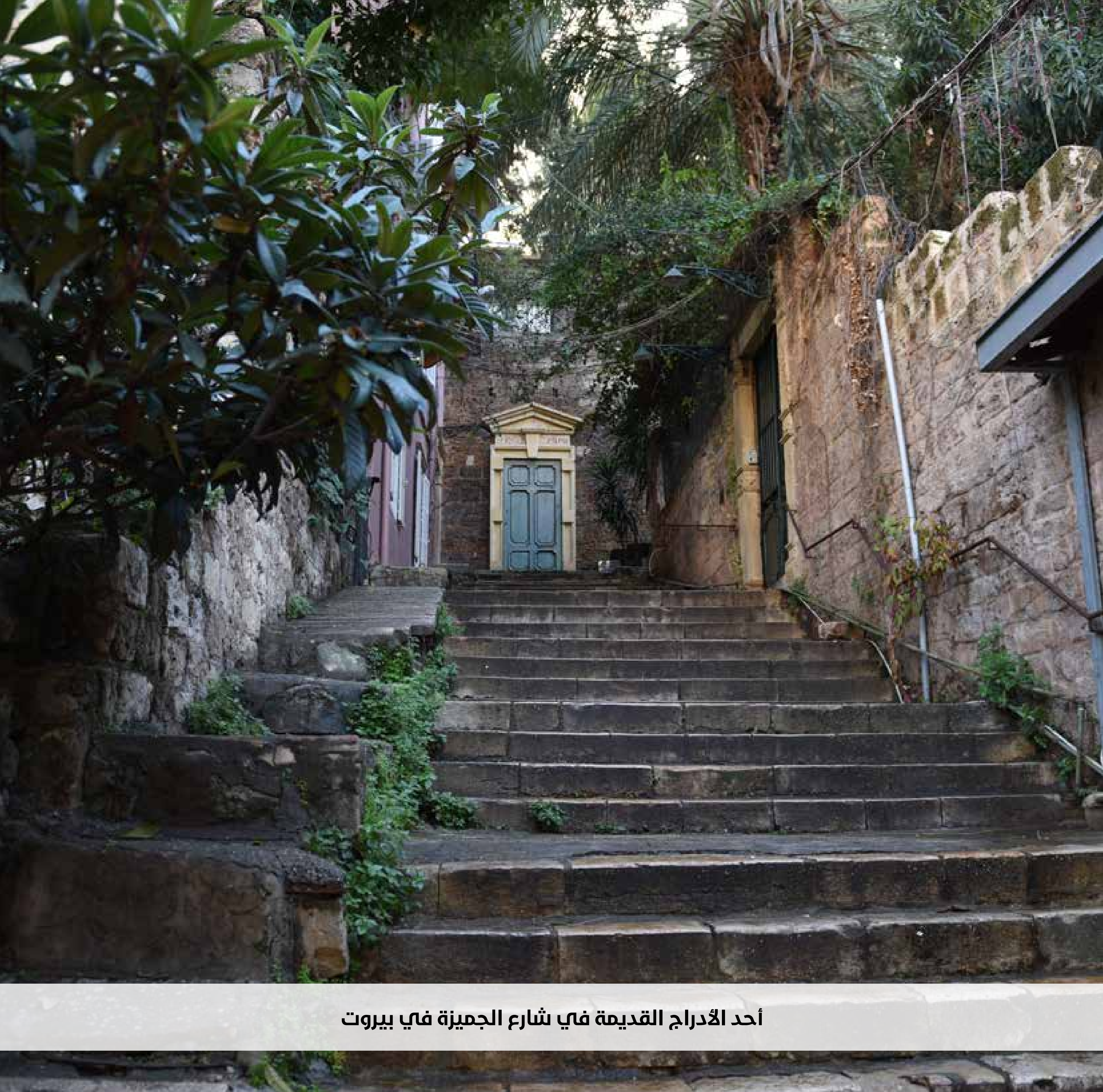
للتواصل عبر الإيميل: adoommoon@gmail.com



آخر صورة التُقطت لكرزون بعد خروجه من اجتماع
مجلس الوزراء البريطاني في العام 1925م



اللورد وليدي كرزون على ظهر فيل في الهند
بتاريخ 29 كانون الأول/ ديسمبر 1902م



أحد الأدراج القديمة في شارع الجميزة في بيروت

ذاكرة الصورة

شارع الجمّيزة.. بين ليل وضحاه

تغريد الزناتي

يُعرف شارع الجمّيزة بأنه أقدم شوارع بيروت، وأكثرها جمالًا من ناحية العمران، وأكثرها سَمَرًا من ناحية التسلية والترفيه. ويقال إنَّ منطقة الجميزة شهدت حقبة الصليبيّين والمماليك، لكنها لم تكن منطقة سكنيّة بامتياز حينها، بل كانت في أوَّل تكوينها منطقة هادئة ومدخلًا للعاصمة.

عالم الشبابيك الخشبية

يقع شارع الجمّيزة عند الكتف الأيمن لوسط المدينة، وتحدّه من الطرف الآخر منطقة مار مخايل. تكثر في الجميزة المطاعم والملاهي الليلة، كما تكثر البيوت القديمة والقناطر العالية وظلال الأشجار الَّتي تنعكس على الأرض من كلِّ صوب.

تضجّ الجمّيزة بالشّبابيك الخشبيَّة. تلحظها عند أوَّل مدخل المنطقة من الجهة اليمنى لوسط بيروت، قرب مقهى "Paul". شبابيك معلَّقة بين جدران حجرية سميكة وأسوار شرفات حديدية، وأخرى بألوان قوس القزح.

شوارع الجميزة ضيّقة، تكاد لا تتَّسع لسيارتين. نشأة الحيّ قديمة، حيث لم يكن للتنظيم العمراني حيّز مهمّ، ولم تكن السيارات بهذه الكثافة. جلّ ما كان يمرّ من هنا هو عربة أو سيارة بين الحين والآخر. قد تمرّ بشارع وُجد بالصّدفة، وربما لم يكن أهله الأوَّلون يتوقّعون إمكانيّة استمراره وتوسعه.

عند منتصف الشّارع، درج طويل، يُعرف بدرج مار مخايل. عند أوَّله غرافيتي كبير لفيروز. تتمايل المنازل والمقاهي صعودًا عن اليمين واليسار، مثل زقاق في ساحة قرية. تنتشر المنازل من كلِّ صوب بهيئتها العجوز المتشابهة وألوانها الباهتة. درج فيروز معلَمٌ تجب زيارته في المنطقة.

التسمية.. تيمنًا بالشّجرة

يسرد التاريخ الشفهي الشعبي قصَّتين يمكن أن تفسّران سرّ التسمية. يُقال إن الشّارع كان يُسمى شارع "البيارة" (من بئر، بسبب وفرة الموارد المائية)، وكان يضمّ شجرة جميزة ضخمة، قطعها حاكمٌ آنذاك لسدّ حاجات المنطقة من الخشب. من هنا كانت التسمية، تقول الرواية الأولى.

أما القصَّة الثانية، والتي هي أقرب إلى قلب سكّان المنطقة، فتقول إن الحيّ كان يحتضن شجرة جميزة كبيرة، اعتاد مسنّو المنطقة التفيؤ في ظلّها وتمضية ساعات طويلة في لعب "ورق الشدة" ولعبة "الطاولة" الشعبيتين بجوارها، لكنها قُطعت لافتتاح مقهى عُرف بمقهى الجميزة.. فكانت التّسمية.

إذًا، تتَّفق القصّتان على وجود شجرة جمّيزة ضخمة سُمِّيت المنطقة تيمّنًا بها، والباقي يبقى تفصيلًا.

في النشأة والتوسّع

توسَّعت المنطقة شيئًا فشيئًا في منتصف القرن السابع عشر. حينها، أدّت الجميزة دورًا بارزًا في ربط قلب بيروت بمدينتي صيدا (جنوب لبنان) وطرابلس (شماله)، كما ربطت بيروت بسوريا عبر الشام. هذا الوصل أدى إلى ازدهار التجارة وحركة البيع والشراء ورفع نسبة الاستهلاك، فاستقرَّ الكثير من الباعة قرب مصدر رزقهم، وكبرت العائلات، فازدادت نسبة السكّان، ما انعكس على شكل العمارات التي تحوَّلت إلى مبانٍ من عدّة طبقات. عند السير في شارع الجميزة اليوم، يمكن ملاحظة أسلوب بناء معظم العمارات القديمة التي تتألَّف من ثلاث إلى أربع طبقات، لتستوعب تزايد عدد السّكان الذي طرأ على الديموغرافيا في القرنين السابقين.

إنَّ نشاط الحركة التجارية في المنطقة، والأثر الاقتصادي الإيجابيّ الّذي خلَّفته علاقتها مع الجوار اللبناني والسّوري، دفع سكان منطقة الجبل اللبناني إلى النزوح والعمل في التجارة والسير باتجاه الإنماء الاقتصادي، فاكتظت الجميزة شيئًا فشيئًا، وزادت أعداد المحال التجارية، ما أدى إلى توسّع المنطقة نحو الأشرفية (شرق المنطقة)، لتصبح بقعة تجاريّة ممتازة.

صباح الجميزة.. وليلها

صباح الجميزة هادئ وراقٍ. يمكنك أن تضيف إليه رائحة القهوة، فيُصوِّر لك عالمًا من الصباحات المثالية. فيء الأشجار عند أطراف الطريق يزيد من الجمالية جمالًا، والنسمات التي تبعثها تترك في روحك بسمة، وكأنَّ الحياة كلّها على ما يُرام.

تصلك من "قهوة إيمان" في شارع غورو (شارع الجميزة الرئيسي) وصلات غنائية لبنانية قديمة بألحانها البسيطة الهادئة. حركة المارة هنا خفيفة خلال النهار. من السكّان من هو منهمك بأشغاله، وبينهم شباب يفضّلون ليل المنطقة الصاخب.

ليل الجميزة لا يشبه هذا الصّباح بتاتًا، من يزُر المنطقة يعلم ذلك جيدًا. أما بالنّسبة إلى من لم يتمكَّن بعد من زيارتها، فسنحاول رسم الصّورة له: ليل الجميزة نقيض حال النهار تمامًا. الليل هنا صاخب ومكتظّ. السيارات تكاد لا تستطيع المرور، والمشاة يفترشون الأرض. للمقاهي شرفات تمتد على طول الرصيف بكراسيها وطاولاتها ومختلف أشكال الإنارة فيها. تصلك الموسيقى من كلِّ ناحية وصوب، منها ما هو شرقي ومنها ما هو غربي، منها كلاسيكيّ وآخر "مجنون". يرضي هذا الشارع كلّ أذواق الساهرين.

تُعتبر منطقة الجميزة إحدى أهم وجهات الفئة الشبابية للسهر والرقص والغناء والاستمتاع بالليالي البيروتية، صيفًا وشتاء. تفتح المطاعم أبوابها مساءً بعد إغلاق شبه تام في فترات الصباح، لتلوّن عتم الليل بأجواء من الفرح والحب.

يكثر وجود الأجانب، الأوروبيون منهم على وجه التحديد، في المنطقة. يعود ذلك إلى انفتاح المنطقة على العالم الغربي، ليس فقط في الشكل، بل أيضًا في الثقافة، وفي شخصيَّة زائريها، وطبيعة المحال التجارية الموجودة، من معارض وغاليريهات ومطاعم واستوديوهات. كثيرة هي الأماكن التي تعتمد على الفنّ هنا، من رسم، وصناعة مجوهرات، وتصميم ملابس، وصالات عرض للمنحوتات واللوحات، ومراكز فنّ التصوير.

"صخب" الحياة والعمل

افتتح إيلي محلًا تجاريًا لصناعة المجوهرات والإكسسوارات اليدوية بأشكالها كافة: أساور، خواتم، سلاسل مفاتيح... المبنى الَّذي انتقل إليه يفوق عمره مئة عام. قناطره ضخمة وسقفه عالٍ لا يمكن لمسه، تتدلى منه ثرية صفراء دافئة، لا تنتقص من جماليته شيئًا.

يتحدّث عن فترة افتتاحه المحل. عندها، شهد إقبالًا كبيرًا من السّياح وسكان المنطقة وزائريها. فرع الجميزة هو الثاني بعد فرع جبيل. يعبّر إيلي عن خيبة أمل شعر بها بعد تراجع الأعمال في المنطقة بشكل ملحوظ خلال فترة قصيرة، لأسباب ترتبط بأمن البلاد واستقرارها، إضافة إلى عدد السّياح المتوافدين إليها وعجلة الاقتصاد التي تدور ببطء وحذر.

لإيلي خبرة في حركة السوق، لكونه اعتاد متابعة هذا النشاط منذ افتتاح محلّه الأول في منطقة جبيل. يقول إنَّ تراجع الحركة يقترن أيضًا بإقفال العديد من الملاهي الليلية الكبيرة في السنوات الخمس الأخيرة، بعد إشكال وقع بين أصحاب الشّقق السكنيّة وأصحاب هذه المحال التي تصدر صخبًا

الشجر في الجميزة كثير، والفيء يغلب على أرصفتها ومحالها، لتبقى المنطقة شمسًا وفيئًا، هدوءًا وجنونًا، وحبًا لكلِّ ما هو عتيق، وحماسةً لكلِّ ما يحمله المستقبل.



صورة من أحد المقاهي الثقافية "Aaliya's Book" في شارع الجميزة

كبيرًا خلال أوقات متأخّرة من الليل، ما أدّى إلى انتقال هذه المحال إلى منطقة مار مخايل (شمال الجميزة). كلّها أمور كسرت من صخب المنطقة، لتقوم مكانها مطاعمٌ ومقاهٍ "عادية".

يسير سليمان بعصاه على جنب الرصيف نحو دكان صديقه القديم، على بعد مفرقين من منزله، ببطء واستمتاع. يخبرنا أنه لم يعتزل حبّ المنطقة يومًا، لا بصخبها ولا بهدوئها، وأنَّ الجميزة تشبه الحياة، هادئة حينًا و"خوتة" أحيانًا. لا يمانع الرجل السبعيني أجواء السّهر التي تعكس الفرح والسعادة والاستمتاع بعمر الشباب. "ما فينا نرقص بس نصير عالعكيزة"، يضيف ممازحًا.

يحبّ سليمان منطقة سكنه حبًّا جمًّا. لا يستبدل بها أيّ مكان آخر، ويعتبر أنها أرقى المناطق بشيبها وشبابها، بعمرانها ونشاطها. يكفي أن تقف على شرفة منزله صباحًا لتفرح بوجودك.

في وداع الجميزة

ترتفع العديد من المباني الضَّخمة حاليًا في المنطقة. ورغم أنَّ الحكومة اللبنانية تبنّت مسؤوليّة الحفاظ على المباني الأثرية في لبنان عمومًا، وفي الجميزة خصوصًا، لوفرتها، فلا بدّ ليد المستثمرين من أن تصل إلى العديد من البقع فيها، لتقيم أجسامًا ثقيلة من الباطون، تفتتح من خلالها مشاريعها الخاصَّة. الجميزة مميزة، لكنَّ يد التغيير تطال كلّ شيء.

قُطعت شجرة الجميزة هنا، لكنَّ الفيء لم ينقطع عن أزقّتها. الشجر هنا كثير، والفيء يغلب على أرصفة المنطقة ومحالها، لتبقى شمسًا وفيئًا، هدوءًا وجنونًا، وحبًا لكلِّ ما هو عتيق، وحماسةً لكلِّ ما يحمله المستقبل. شتّان ما بين ليل الجميزة وضحاه. لا يعرف سرّها إلا من آنسها في المشهدين!

تغريد الزناتي: حائزة على ماجستير في الإدارة والمعلومات، وتعمل في قسم أرشيف جريدة الأخبار اللبنانية منذ العام 2013.
للتواصل عبر الإيميل: taghridzinaty@hotmail.com





مكتبة مقهى "Aaliya's Books" في الجميزة



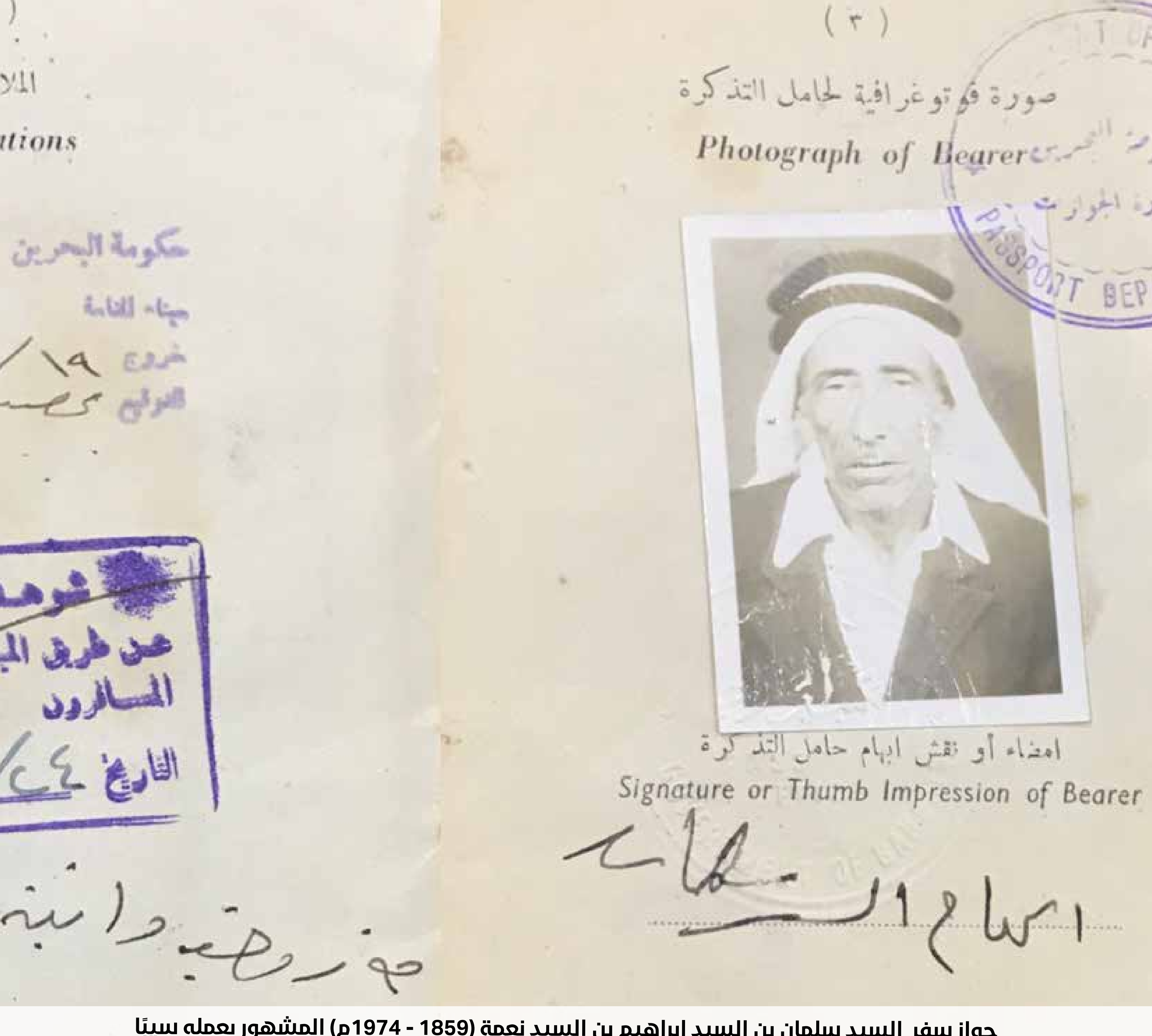
جانب من مكتبة مقهى "Aaliya's Book" في الجميزة



أحد الأحياء الجانبية القديمة الممتدة
من شارع الجميزة



شارع الجميزة الرئيسي في بيروت



جواز سفر السيد سلمان بن السيد إبراهيم بن السيد نعمة (1859 - 1974م) المشهور بعمله سيبًا خلال رحلات الغوص في البحرين

كشكول

قصّة "سيبٍ" بحرينيّ أصيل

السيد سلمان السيد محمد الموسوي

إلى ساعدٍ عنوَن مرحلةً شكَّلت تاريخ الوطن، عندما يسحب الغواص، ومعه يسحب الدانات، ويستخرجها من محاراتها.. إلى السيب الَّذي أنجب السيد محمد والسيدة فاطمة، إلى من مَنَحَني اسمه وفارق الحياة.. إلى جدّي رحمه الله تعالى.

"ولد من انته؟"

سألني مُلِحًّا في السؤال قبل أن أجلس في مجلسهم! فأجبته: "أنا ولد سيد محمد ولد سيد سلمان". "والنعم فيك، رحم الله جدّك يا ولدي، كان بطلًا من الأبطال"، قال. ثم جلسنا في المجلس ونحن بمعية حفيده ناجي جمعة، وذلك عندما كنا ندرس في المرحلة الإعدادية في مدرسة سماهيج، إذ كنا نتزاور فيما بيننا بعد الدوام المدرسي.

أشعَرني قول جد الصديق العزيز الأستاذ ناجي جمعة (النهام المؤذن الحاج محمد بن سلمان أبو جمعة (1924 - 1998م) بالفخر بجدي الّذي لا أعرف عنه الكثير، لأنه توفي في اليوم الثالث من ولادتي، أي في 23 شباط/ فبراير 1974م، عن عمر ناهز 84 عامًا، إذ كانت ولادته في العام 1895م، فسُمّيت باسمه بوصيّة منه (رحمة الله عليه)، بعد أن كان اسمي جعفرًا.

لم يكن جيل أبي وجدي قد نال حظه من التعليم في ظلّ الحياة التي سادها الفقر، إذ كان الولد الذكر يعدّ ثروة لأبيه الذي يستعجل ضمّه إلى العمل ليسانده في مواجهة ظروف الحياة القاسية، قبل النفط وبعده أيضًا، إذ كانت الحرب العالمية ترمي بثقلها على الناس، فما كان لهم حظ في التعليم بسبب انشغالهم بلقمة العيش.

وهذا من وجهة نظري، هو - أي عدم التعليم مع الفقر - العامل الأكبر في ضياع معظم تراث البحارنة، إذ إنّ الجو العائلي لم يكن من الفراغ بمكان لتداول المسائل التاريخية التي ترتبط بالأنساب، فضلًا عن التاريخ العام للبلد، فالأب مشغول بتأمين الحاجيات الأساسية لأفراد أسرته، والأولاد ينشأون غير مدركين أهمية حفظ تاريخهم الأسري وتدوينه، وبالتالي لم تتشكَّل قاعدة البيانات الأساسية في حفظ ذلك التاريخ بصورته التي كان عليها. إذًا، من العسير الوقوف على تفاصيل الحياة اليومية للناس في ذلك الزمان غير البعيد بسبب الأمّية والفقر.

بعد زمن الغوص، وبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، أخذت عجلة الاقتصاد تدور، فتحسَّن الوضع المعيشي، وانتقل الناس من مستوى سدّ الرمق إلى مستوى طلب العلم الَّذي بدأ "نظاميًّا" قبل ذلك بكثير، إلا إنَّ المجاعة التي سبَّبتها الحرب أعاقت العملية التعليمية عن الانتشار.

على الرغم من انتشار التعليم في البحرين، فإنَّ الوضع التوثيقي لم يتغيّر، بسبب وجود متعلّمين يفكّرون بالعقلية القديمة نفسها التي تخاف الفقر، فكان همّهم تأمين المستوى المعيشي اللائق لأسرهم، فلم يدوّنوا ولم يسعوا إلى البحث، وكان الآباء والأجداد من الغاصة بين ظهرانيهم!

كانت كلمات الحاج محمَّد جدّ صديقي ناجي جمعة تشعرني بالفخر في حينها، لكنها أمست تشعرني بالألم بعد افتقاد أبي وكلّ من يمكنني سؤاله عن جدي ويومياته وتاريخه، والذي كلَّما قابلني كبيرٌ في السن وعرف اسمي، ترحّم عليه، على شاكلة جد ناجي جمعة، ونفحني بشيء يتعلّق بكفاحه وقوّته الجسدية.

الولادة والنشأة

ولد السيد سلمان بن السيد إبراهيم بن السيد نعمة في نهاية القرن التاسع عشر، وتحديدًا في العام 1895م، أي ما بين العامين 1312 و1313هـ بحسب جواز السفر، أي قبل سنة "الطبعة" بثلاثين سنة، لأبوين ينحدران من نسب رسول الله (ص)، في قرية الدير التي ترعرع فيها طفلًا، قبل أن يلتحق بركب العمل في البحر الذي داعب رجليه، كما داعب رمال القرية الوادعة. كان الثالث بعد أخيه السيد علوي بن السيد إبراهيم، والسيدة شريفة بنت السيد إبراهيم، معلّمة القرآن، ونحن في غنى عن ذكر صحَّته الجيدة في طفولته، والتي دلَّت على قوّة بنيته وقوّة بنية معظم من استطاع البقاء من أبناء ذلك الزمن الذي لا توجد فيه أدنى رعاية صحية، في ظل انتشار الأوبئة والأمراض، في زمان الفقر المدقع.

إن الخضرة والزرقة، والرمال الذهبية، والطبيعة البكر في وقت السحر، والبيوت الطينية، والأكواخ، والبرستجات، والظلام الدامس، والأساطير، وحكايا الكبار، والألعاب الشعبية، جميعها تركت أبلغ الأثر في نشأة هذا الفتى الذي عاش في بيتٍ سوره حجارة أحاطت بفناء ترابي كبير حوى بعض الحيوانات والطيور، ووقع شرق ربوة المسجد التاريخي العتيد، مسجد الراهب، الذي درج السيد في الدروب التي توصل إليه في مرح الطفولة البريء، الذي لم يستمر طويلًا، بسبب ظروف المعيشة القاسية.

الشَّباب والعمل في الغوص

بعد أن شبَّ السيد سلمان عن الطّوق، و/ أو قريب ذلك، امتهن كغيره من الشباب مهنة الآباء والأجداد التي اشتهرت بها المنطقة، إلى جانب الزراعة، وهي "مهنة صيد اللؤلؤ" أو "الغوص"، فعمل مع النوخذة الحاج جمعة بن سوار (من أهل المنامة)، الذي كان يملك سفينة من نوع "السنبوك" (سفينة شراعية لها صاريتان ومجاذيف كثيرة، وطولها بين 40 إلى 60 قدمًا)، تسمّى "الحسيني"، وفي رواية أخرى سفينة من نوع "بوم" (سفينة شراعية استعيض بها عن سفينة تُسمى البغلة، وهي مدبّبة المؤخّرة، على عكس البغلة ذات المؤخرة

لم يترك السيد سلمان العمل في البحر، لأنَّ طينته عُجنت من الأرض التي ضمّها البحر طوال التاريخ بعطفه وأغدق عليها من خيراته.

المربعة، وللبوم مقدمة مدببة في طرفها العلوي خشبة تصبغ غالبًا بالأسود والأبيض، ويمكن أن يرفع القبطان فيها سبعة أشرعة، لكن معظم النواخذة يكتفون بثلاثة أشرعة)، ويطلق عليه "بوم ابن سوار"، ثم عمل على إحدى سفن النوخذة الحاج مبارك بن شاهين العماري، الذي غرقت في سنة "الطبعة" سفينة له من نوع "جالبوت" (سفينة طولها بين 25 و60 قدمًا، لها مجاذيف وصارية أو صاريتان)، اسمها "سعيدة"، وقد تم قطرها، فسمّيت بعد ذلك بـ"جهنم". لا أعلم إن كان السيد سلمان بن السيد إبراهيم على متنها أو على متن سفينة أخرى حينها، لكنه كان من الناجين من الغرق في سنة "الطبعة" التي ابتلع فيها البحر الكثير، وهو شاب اقترب ليكمل أو أكمل العقد الثالث من عمره.

ما اشتهر عن السيد سلمان أنه كان يعمل "سيبًا" (الذي يقوم بسحب الغواص بحبل يهزّه الأخير عند الحاجة لخروجه من العمق، كما يقوم بالتجذيف عندما يأمر النوخذة بالتنقل بين الهيرات، ومن أعماله فلق المحار لاستخراج اللؤلؤ، كما يقوم السيب بتنظيف السفينة) خلال رحلة الغوص، وذلك يتطلَّب قوّة وسرعة وتحمّل مسؤولية حياة إنسان قد يتعرض للموت في الماء، فيما لو قصّر "السيب" في عمله، أو تباطأ أو تعب. ومن الواضح كذلك عمله على سفن يملكها أناس من خارج قريته، وذلك له علاقة بالأجرة التي يتقاضاها، أو كما يُسمّى حينها "السلف"، بمعنى الدين، لأن العامل في الغوص عليه إعادة المبلغ الذي تقاضاه، إن تخلَّف عن الرحلة التي تليها، بحسب اتفاق تحدده الأعراف حينها، وما تنَقّله إلّا بسبب الكفاءة التي شهد بها جميع من حدّثني عنه وعن قوّته البدنية.

ومع وجود عرف أشبه بالقانون يلزم العامل لدى أي نوخذة بالتواجد في رحلته القادمة أو دفع الأجرة التي تقاضاها،



امتهن السيد سلمان مهنة الآباء والأجداد التي اشتهرت بها البحرين، وهي مهنة صيد اللؤلؤ أو الغوص

التزم النوخذة بدفع أجرة السيد سلمان مع زيادة أجرته عما كان يستلمه لدى سلفه، وذلك إن دلَّ على شيء، فإنما يدل على شهرة السيد لدى نواخذة البحرين، بحيث يطلبونه ويزيدون في أجرته ويدفعون ما عليه من "سلف". وفي العادة، كانوا يتنافسون على الغاصة الذين يكابدون مشقّة أكبر، ويتعرّضون لخطر أكبر بغوصهم في الأعماق التي يجهلون ما ينتظرهم بداخلها من خطر، فكانوا عملةً مطلوبة أكثر من السيوب (جمع سيب)، لكن يبدو أن السيد كان بحثًا آخر بالنسبة إليهم.

الزوجة والأولاد

تزوّج السيد سلمان بن السيد إبراهيم من كريمة السيد يوسف بن السيد علوي، السيدة شريفة (1908 - 1998م)، وهي معلّمة قرآن وصاحبة المأتم النسائي المسمّى باسمها، وأنجب منها أبناءً وبناتٍ عاش منهم بعد تخطّي الأوبئة المميتة السيد محمد (1921 - 2008م)، والسيدة فاطمة (1930 - 2008م). وبحكم طبيعة الحياة، ورث الولد عمل أبيه في البحر، فحتى بعد أن عمل في شركة نفط البحرين، لم يترك البحر، و"احترف" المهنة بعد التقاعد، كما ورثت البنت عمل أمها في تعليم القرآن والقراءة الحسينية.

تزوّج السيد محمد، فأنجب السيد إسماعيل، والسيد علي، والسيد هادي، والسيد ياسين، والسيد سلمان، وخمس بنات، ملأوا بيت السيد سلمان بن السيد إبراهيم مرحًا وبهجةً، كما ملأوا قلبه بذلك. تزوّجت السيدة فاطمة، فأنجبت عليًا وجعفرًا وخليلًا، وثلاث بنات من زوجها الحاج إبراهيم بن علي بن مدن، كانوا أيضًا قرة عين جدهم. كما عاش السيّد لحين زواج بعض أحفاده الذين أنجبوا على حياته.

كانت شخصية السيد في البيت شخصية الزوج الذي منح زوجه الاحترام والتقدير، بمنحه إيّاها حق التصرّف والتدبير في المنزل وشؤونه، وذلك ما جرت عليه العادة منذ أيام الغوص، إذ يترك المنزل لأم السيد محمد التي تحكم البيت بسلطة الأب الغائب الحاضر، فهو زوج محبّ لزوجه، متعاون معها، لكنه في الوقت نفسه، الصارم الشديد مع ابنه وابنته، وبخاصة الولد، وكل ذلك من أجل أن تسير سفينة الأسرة في غيابه كما لو كان حاضرًا.

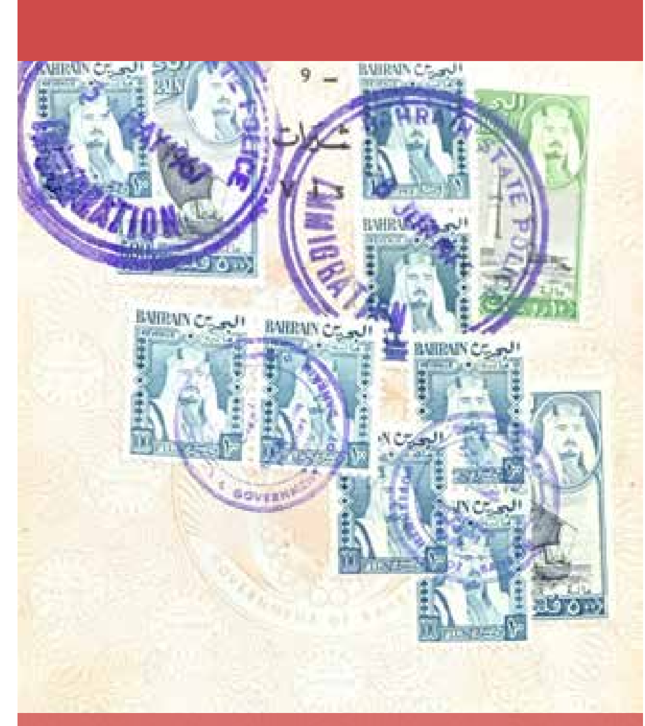
أما مع الأحفاد، فالأمر مختلف، لأنَّ الزمان كان زمن رخاء لا شدة، لكن شخصيته المهيبة لم تتغيّر، وبخاصة إن اقترب الأمر من المساس بهيبته التي ظلت ملازمةً له طول عمره.

العمل في صيد الأسماك

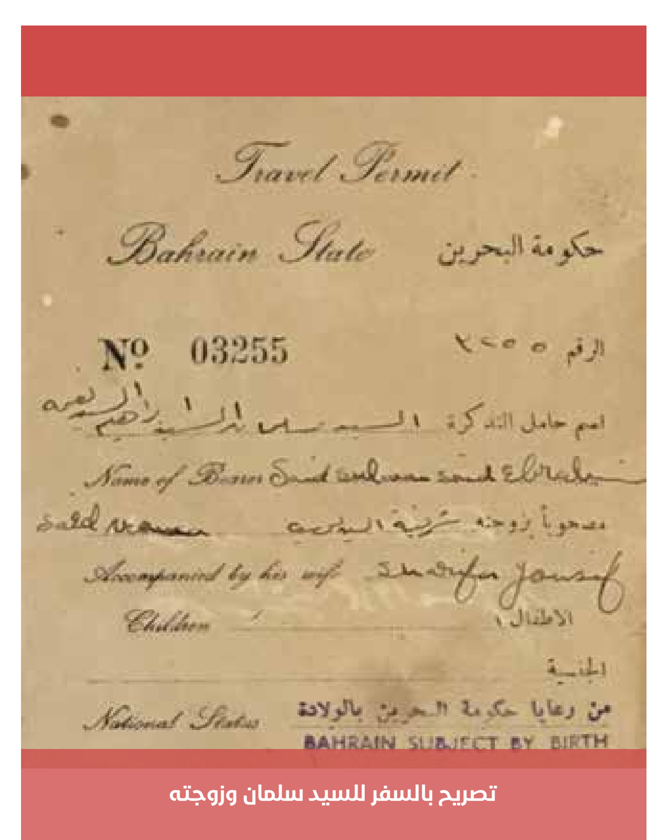
يُعتبر تاريخ 28 أيلول/ سبتمبر 1925م تاريخًا مهمًا في البحرين، إذ تؤرّخ الأحداث قبله وبعده، لأن فيه حدثت الحادثة المعروفة بـ"الطبعة"، التي غرق فيها عدد كبير من السفن ومات على إثرها خلق كثير. لذا، اعتُبر فاصلًا بين حقبتين في تاريخ البحرين؛ حقبة الغوص ورواج اللؤلؤ والدانات المستخرجة من الأعماق، وحقبة تلتها كسدت فيها تجارة اللؤلؤ، حيث الفاجعة العظمى والخسائر الكبرى. ومع عدم التعافي منها، تم اكتشاف النفط في البحرين، وظهر اللؤلؤ الصناعي الذي نافس اللؤلؤ الطبيعي منافسة جعلت المغامرة بالحياة في سبيله ضربًا من الجنون.

بما أنَّ السيد سلمان كان من الناجين، وبما أنه مرتبط بعقد "السلف" أو الدَّين آنف الذكر، وبما أنه كان في أوج شبابه وقوّته، فإنه واصل ما تبقّى من عمر الغوص حتى انتهاء هذه المهنة في ثلاثينيات القرن العشرين على وجه التقريب، إذ ألقى التطوّر الذي جلبه النفط والتغيير في الحياة الاقتصادية بظلاله على الناس، الذين ما منعهم من تلكم الخيرات سوى نشوب الحرب العالمية الثانية (1939 - 1945م)، التي سببت مجاعة في البحرين، ومات كثير من الناس بسببها.

لم يترك السيد سلمان العمل في البحر، لأنَّ طينته عُجنت من الأرض التي ضمّها البحر طوال التاريخ بعطفه، وأغدق عليها من خيراته،



إحدى صفحات جواز سفر السيد سلمان



Travel Permit

Bahrain State حكومة البحرين

No 03255 الرقم ٣٢٥٥

اسم حامل التذكرة

Name of Bearer

مصحوباً بزوجته

Accompanied by his wife

Children الأطفال

الجنسية

National Status من رعايا حكومة البحرين بالولادة

BAHRAIN SUBJECT BY BIRTH

تصريح بالسفر للسيد سلمان وزوجته

فهو ابنها البار الذي لن يتنازل عن امتهان مهنة أجداده، والمهنة التي امتهنها منذ صباه، فشكّلت عالمه وذكرياته وتكوينه الاجتماعي في جميع علاقاته.

لقد واصل السيد لقاءه ومعشوقه الأزرق من خلال عمل آخر، هو صيد الأسماك، فانضمّ إلى عدة نواخذة، منهم، على سبيل المثال، الحاج مكي بن عبدالله بن مكي (والد كل من النوخذة الحاج عبد الله (1922 - 1997م)، والنوخذة الحاج علي (ت 2 آذار/ مارس 1996م)، والحاج عبد العظيم (ت 2012م)، والدكتور عيسى، وجَدّ كلّ من النوخذة الحاج أحمد بن علي، والنوخذة الحاج مكي بن عبدالله، وجميع النواخذة الذين ورثوا عن جدهم هذه المهنة الشريفة، حيث كان الحاج مكي يملك سفينة من نوع شوعي كبير، يبحر بها إلى منطقة تسمى "الغَزَرة"، وهي منطقة تعتبر قريبة بالنسبة إلى بقية مناطق الصيد.

أيضًا من النواخذة الذين انضمّ إليهم السيد سلمان، النوخذة الحاج محمد بن علي بن حسن الحمر (1918 - 1985م)، أخو الحاج إبراهيم، ووالد كل من الحاج علي والحاج جعفر، وعم الحاج علي، والحاج آدم، والحاج فيصل، وعيسى. ومن النواخذة الذين أبحر

معهم السيد سلمان، النوخذة الحاج عيسى بن علي الشايب (1911 - 1995م) والد علي عيسى الشايب. وأخيرًا في العام 1961م، انضم إلى لنج بيت السادة مع النوخذة السيد سعيد بن السيد يوسف (ت 12 شباط/ فبراير 1998)، والسيد باقر بن السيد حسن بن السيد علوي (1915 - 2004م) والحاج رضي السادة، والحاج موسى بن حسن أبو حسان (ت 2001م). وكان ولده السيد محمد يبحر معهم في أيام إجازاته، حيث كان يعمل حينها في شركة نفط البحرين بابكو. وقد تعرّض السيد سلمان لحادثة قطعت معها إصبعه الوسطى من كفّه اليمنى، والذي أشار إليه صديقه الشاعر الحاج سلطان بن حسن بن أحمد الخليف الإحسائي (1889 - 1979م) بقوله:

"هذاك مقصوص الصبع من چف ليمين... وذاك ميّت ماكلتنّه المكينة".

مرحلة التقاعد

لم يترك السيد سلمان البحر طول حياته، إلّا حين فقد حاسة النظر، إثر ضربة شمس تعرض لها أثناء جمع الطحالب والحشائش البحرية (الحشيش)، وذلك في منطقة الجفير، حيث لا ظلّ يستظلّ به. وقد شعر بآلام مبرّحة في رأسه نتيجة لذلك، ولأثر ضربة أصابت رأسه في شبابه أيضًا، وقد تأخّر عليهم سائق الشاحنة التي ستقلّهم من مكان عملهم إلى البيت، وكان ذلك في العام 1969م. عاش السيد سلمان فترة التقاعد القسري، الذي لولاه لما تقاعد، مع أنه بلغ حينها الرابعة والسبعين، إذ شهد من كان يعمل معه في آخر سني عمله بما كان يتمتع به من قوّة ونشاط.

قضى السيد سنوات التقاعد متقلّبًا بين منزله ومجالس جيرانه، فترك في أنفس من عاشرهم أثرًا طيّبًا لم ينسوه حتى وقتنا هذا. وقد رحل عن دنيانا بعد خمس سنين من التقاعد، وهو يحمل شهادات وعلامات تركها صديقه الأزرق على جسده ونفسه وعقله، جعلته كفيف البصر، مقطوع الإصبع الوسطى من كفه الأيمن، لكنها منحته البصيرة بخبرته العريضة التي شكّلتها تجاربه في الحياة، وتنوّع مخالطته للناس، فقد عاش بقيّة عمره معهم، ولم يأخذ ذلك من علاقاته الاجتماعية، فأخذ موقعًا متميّزًا في قلوب من عرفه.

مجالسه

كان السيد سلمان طيّب المعشر، يحبّه من يجالسه، وكان صاحب نكتة وأدب في مجالسه، إذ إنه تنوّع في ارتياد مجالس النواخذة أيام الغوص بين المنامة والمحرّق والدير طبعًا.

1. مجلس السيد سعيد بن السيد يوسف

من مجالس النواخذة الذين أبحر معهم، على سبيل المثال، السيد سعيد بن السيد يوسف بن السيد علوي، الذي اشتُهر بالكرم، حتى قال عنه الحاج رضي بن حسين المؤمن: "السيد سعيد هو حاتم الدير"، وذلك لما عُرف عنه من سخاء، وقد كانت البحارة وأفراد العائلة يجتمعون لديه، وكان السيد سلمان تربطه علاقة مصاهرة بالسيد سعيد، كما أسلفنا، ما جعل العلاقة وثيقة جدًا.

2. مجلس عائلة حمّاد

تُعتبر عائلة حمّاد من أكبر عوائل الدير المتجذرة في عمق تاريخها، وبخاصة بما يرتبط بالبحر، إذ كانوا يمتلكون سفنًا للغوص، وقد توارثوا ذلك أبًا عن جد، ونوخذة عن نوخذة، وكان مجلسهم مفتوحًا للجميع في جميع الأوقات، حتى أيام مجاعة الحرب العالمية الثانية، إذ كان يقصده (هو ومجلس الحاج عبدالله بن عيسى) الناس الذين أصابهم ما أصابهم من جوع، كما يقصده الأقارب الكثيرون الذين تربطهم به صلة الرحم، وبخاصة أنَّ النوخذة الحاج حمّاد بن علي بن حمّاد بن سلطان جد النوخذة الحاج حمّاد، أنجب تسع بنات تفرَّعن بالنسب أيما تفريع، هنَّ أخوات الحاج أحمد بن حمّاد الذي لقب بـ"الوحيد"، لأنه المولود الذكر الوحيد الَّذي رزق به الحاج حمّاد بن علي.

كان السيد سلمان من روّاد مجلس آل حمّاد في أيام النوخذة الحاج حماد بن أحمد بن حماد بن علي بن حماد بن سلطان (1888م - 1958م)، حيث ربطه به رحم من جهة إحدى عمّاته، وأيضًا لكون المجلس منتدى لأهل البحر.

3. مجلس الحاج حسن بن إبراهيم بن صالح (1921 - 1991م)

الحاج حسن هو والد الأستاذ إبراهيم، والحاج محمد، والحاج عيسى، والرادود الحاج عبد الكريم، والحاج سلمان.

يُعتبر مجلس الحاج حسن بن إبراهيم من مجالس الجيران التي يزورها السيد سلمان في شهر رمضان، حيث تلاوة القرآن بصوت الحاج حسن بن إبراهيم، والمجلس نفسه الذي يجلس فيه ولده الأستاذ الحاج إبراهيم أبو صادق.

4. مجلس الحاج سلطان بن حسن بن أحمد الخليف الإحسائي (1889 - 1979م)

كان الحاج سلطان بن حسن أبو يوسف يستأنس بمجالسة السيد سلمان أيما مجالسة، إذ كان يرسل ولده الحاج علي بن سلطان إلى منزل السيد سلمان الكائن في الحي نفسه شمالًا، ليستعجله في الحضور، إذ كان قد كُفّ بصره، فكان يأتي إمّا بمعيّته، أو بمعيّة أحد أحفاده، أو زوجه أو وحده. كان يلتقي بجلّاس الحاج سلطان، وهم الحاج حسن بن علي بن عبد الله الحماقي (1925 نيسان/ أبريل 1995م)، والحاج محمد الجد، والحاج علي التاجر، والحاج عبد الله بن غانم، وغيرهم.

كان أبو يوسف لا يصبر عن مجالسة السيد سلمان، حتى إنه كتب فيه الأشعار التي حفظها جلساؤه، ومنها هذه القصيدة:

بدّيــت باســم اللــه وثنَّيــت بالجيــل
واســم النبــي المدفــون بــأرض المدينــة
واســم الإمــام الــلي نــصر بــدر واحنين
والخمســة الأشــباح سر الســفينة
واخديجــة الكــبرى أمّ لِمْســلْمِين
معروفــةٍ بالحــال زوجــة نبينــا
گال الحســن يــا عمــدة الديــن يحســين
صِــدَگ جــواب الجــد يحســين فينــا
إنتــه تِگتلــك ذا الطغــاة الملاعــين
وآنــا أجــاسي ســم جعــدة اللعينــة
في ذا المحاكــم والمحافــل ذليلــين
دايــم لِنــا الحــگ ويگلــب علينــا
(والســيد ســليمان خــير الوفيــين
لــوّل يشرفّنــا وازعِــل علينــا)
محــدٍ يگــول أهــل المدينــة مِشرْكِــين
لكــن خالفــوا العمــدة وســنّة نبينــا
في ذا البحــارة والهــواري مــن اسـنين
والمرزبــان ســنّادِنا لا لفينــا
يــوم الدهــر عــدل واحنــا بعيديــن
تلگــى الوِدْمَــة والمشــاوي تجينــا
ويــومٍ عطانــا اللــه وصرنــا غنيــين
لنجاتنــا گامــت تحفّــي علينــا
(هذاك مگصــوص الصبع من چــف ليمين)
وذاك ميِّــت ماكلتنَّــه المكينــة
والختــم صلّــوا عــلى ســيد النــاس
محمــد المبعــوث بــأرض المدينــة

لم يعش السيد سلمان بن السيد إبراهيم معيشةً تمكّنه من تعلّم القراءة والكتابة، رغم أنه عايش بداية التعليم في العام 1919م، لكنه كان متنوِّعًا في ثقافته التي شهدت بها مجالسه، والتي صنعتها مسيرته طوال ما ناهز ثمانية عقود من الزمن هي عمره، اختلف فيها بين زمن الغوص وزمن النفط، وثقافة أهل المنامة والمحرق ومسقط رأسه الدير، ومجالس السمر على سفن الغوص ذات القصص والحكايات والأشعار التي كان يرددها في مجالسه، وخصوصًا بعد التقاعد، ومعظمها يتكلم عن الحنين والشوق وما يحرك المشاعر بحكم طبيعة الحال الذي يعيشه طاقم سفينة الغوص. ومن الأمثلة على ذلك ما كان يردّده من أشعار:

ليــت لمگــدّر فــلا صــاب النبي يوســف
من شــاف حســنك تعجّب يالنبي يوســف
أبــدًا فــلا في مــصر مثــل النبي يوســف
يوســف حكم في مصرهم واســتگام ســنين
تلفــي ســنين المحيــا مــا لفــت لســنين
يــا صاحب الســجن تبگى فيه بضع ســنين
صــاب الگلب ما صاب يعگوبٍ على يوســف

وقد شارك في مجالس الحسين (ع) بمواعظها وخطبها وأدبها وتاريخ أهل العصمة (ع) وسيرهم، ومجالس القرآن وتعليمه في منزله، والتي اتضحت من خلال ما يتداوله من أشعار وحِكَم وأمثال وغيرها مما تركته تلكم الحياة على سلوكه مكوّنة ثقافته، ودفعته إلى بناء حسينية للنساء في العام 1965م تقريبًا، بعد أن كثر "الوليدات" لدى زوجه، وهن الطالبات اللائي يتعلّمن القرآن، إذ كبرن وصار البيت يعج بهنَّ.

تجلّت ثقافة السيد سلمان الحسينية أيضًا في استقباله حلقات موكب العزاء الذي يمرُّ من منزله، فيتشرّف باستضافته بما تيسّر له من إمكانيات.

الثقافة ليست معلومات جوفاء نقرأها، فنتكبر على العباد بشارة وهمية اسمها "مثقف"! بل هي ممارسة حضارية تعكسها تلكم المعرفة، تلوّن الحياة بزخارف بديعة، يتركها الإنسان لتبقى بعد ذهابه من هذا العالم.

"سوالف" من هنا وهناك

محرّك لا يشتغل

يقول الحاج رضي السادة إنَّه كان يعمل مع لنج السيد سعيد بن السيد يوسف (لنج السادة، وسميت كذلك لأن جلّ من يبحر عليها هم من السادة)، التي كان محركها الديزل الإنجليزي الصنع من نوع "ليستر" يشتغل عن طريق اللّف بيد حديدية معقوفة تتطلَّب قوّة كبيرة لتدور بسرعة، فيدور معها المحرك، فكان جميع من على اللنج يعجزون عن ذلك لوحدهم، عدا السيد سلمان، الذي كان يلفّها براحة، وهو الذي ذرَّف أو اجتاز السبعين من عمره حينها.

القارب يميل

يروي الحاج إبراهيم بن حمّاد (أبو رضا) أنه رأى في صغره السيد سلمان مع جماعة ممن يعملون في البحر ذاهبين إلى اللنج في قارب يجدّفون فيه من الجانبين، فكان يميل عند تجذيفهم جهة السيد سلمان، وذلك لعدم تكافؤ القوّة بينهم عند التجذيف. وعندما سألناه، أي الحاج إبراهيم، عن السَّبب، علَّل ذلك بما يمتلكه السيد سلمان من قوّة بارزة تفوق الطّرف الآخر!

عزّة نفس

يروي أحد أحفاد السيد سلمان أنَّ جدّه السيد سلمان عندما كُفّ بصره، كان يطلب منه اقتياده إلى مجلس الحاج سلطان بن حسن الخليف، فطلب منه في ذلك اليوم أن يذهب به قائلًا: "ياالله يا ولدي خلنا نروح"، فأجاب الحفيد: "لحظة شوي أبويي العود"، فما كان منه إلا أن رماه بالعصا التي كان يستخدمها كمجسّة يجسّ بها الطريق،

وكان جالسًا مستظلًا بظلّ جدار المجلس في الفناء، فأصابت رميته جدار الحسينية في الطرف الآخر من المنزل الذي يبعد قرابة خمسين قدمًا، لترتد لنصف المسافة بعد ارتطامها بالجدار! ما جعل الحفيد يحمد الله شكرًا على أنها لم تصبه، وإلّا لكان من الهالكين.

إحسانٌ متبادل

اتّفقت روايات الأحفاد على أن جدهم عندما كان كفيفًا، كان يأخذ في كفّه ما تبقى من الرز على المائدة إذا أراد الذهاب لغسل يده وقضاء حاجته، وكان في البيت زوج إوَز يرقبه عند الباب، فما إن يرى السيد خارجًا حتى يتقدمه إلى مكان دورة المياه، فيقدِّم السيد عصاه ليحقّها الإوَز، فيوصله إلى الحمّام، فيكافئه بما في يده من أرز.

وكان الإوز ينتظره لأنه أصبح صديقًا له، ليوصله كرةً أخرى إلى غرفته، فتعوّد الإوز على ذلك حتى في الأوقات الأخرى بمجرّد رؤيته للسيد، "سبحان الله!".

مكان آمن

كانت الحسينيَّة تحتفل بموالد أهل البيت (ع)، فكانت تستقبل مساهمات الناس، من حلويات وفول سوداني وملبس، في زبيل مملوء، بما يغري الأطفال ويسيل لعابهم، فتضعه الجدة في خزانة في الغرفة التي ينام فيها السيد، لرهبة الأطفال منه، لكنّ عشق الأطفال للحلويات ينسيهم المخاطر أحيانًا، فيتسلّلون إلى الخزانة بعد التأكد من نوم جدهم الكفيف، لكنه سرعان ما يكتشف حركتهم، فيهبّ صارخًا: "أوكفوا ليي"، فيفر الصغار إلى بيت الجيران (بيت الحاج العرادي والد الأستاذ عيسى العرادي أبو حامد)، ليمكثوا هناك حتى يسكن الغضب عن جدهم.

جبر الخواطر يفوح شذاه

قام من مجلسه في مسجد الراهب حين اتجهت لمصافحته، واستقبلني بالسؤال: "انته لحكت على جدك السيد سلمان؟"، فأجبته، فبادرني بـ"سالفة" عن جدي حصلت حينما كان أبوه الحاج موسى بن الحاج حسن أبو حسان زميلًا للسيد سلمان على لنج السادة، فحدث شجار بينه وبين السيد باقر، جعل الحاج موسى يغضب، ولم يحضر إلى العمل متأثرًا بكلام السيد باقر، الذي جعله الغضب يتلفّظ بما لا يعكس أخلاقه الكريمة! فما كان من السيد سلمان إلّا إن ذهب إليه ليأخذ بخاطره ويستسمح منه، فعاد وعادت المياه إلى مجاريها، فرسخ هذا الموقف في ذاكرة ولده، لينقل شذاه إليَّ بعد كلّ هذه السنين!

تنهدات على حبّ عليّ!

كانت الفترة الصّباحيّة حين كنتُ عاطلًا من العمل تزخر بتنوّعٍ في الحكايا عندما تجيء النسوة إلى جدتي، فكانت تنهدات جدتي وعمّتي وأمّي ومن حضر معهن من نسوة الحي تملأ المكان وهي تحلّق بأشواقها لزيارة الأئمة (ع) في العراق، فتبدأ الجدَّةُ بسرد قصة السيّد هاشم الذي يعمل في الحضرة العلويّة حين يمرُّ على زوجها السيّد سلمان، فيناديه (وهنا تقلّد الجدّةُ لهجة السيد هاشم العراقية): "سيد سلمان گوم أبويه للزيارة"، وكان السيد يذهب بعد هذا النداء لزيارة مولانا أمير المؤمنين (ع) في حضرته المقدسة.

أبيات في الصناديد الأربعة

كانت البحرين تشهد فتنًا بسبب وجود المحتل الإنجليزي الذي اشتهر بسياسة "فرّق تسُد"، التي يضمن بها بقاءه، وبخاصة بعد بروز دور أعضاء هيئة الاتحاد الوطني بتوحيدهم الصفوف في الخمسينيات ضد تلكم السياسة القذرة، فأخذ ينفي أعضاءها في العام 1956م، بعد تلفيق التهم لهم.

كانت منطقة الدير، كباقي المناطق، تنضح بالثوار وأهل الغيرة الذين يدافعون عن حياضها من براثن المندسين وعملاء المحتل الذي يريد الفتنة الطائفية ليستتب له الأمر، وكانت تغلي عندما

يقوم الاحتلال بنفي القادة في هيئة الاتحاد الوطني، فكان التجمّع للمسيارت المناهضة للمحتل يخرج من جنب بيت السيد عبد الله بن السيد هاشم، قرب بيت الحاج أحمد بن هلال، قبل بناء جامع الخيف الذي كان حينها أرضًا محددة بعد رفض الأهالي بناء مدرسة عليها في العام 1953، وأيضًا كانت البيوت تتركز شمالًا، أمّا الجنوب فعمر لاحقًا.

برز في هذا الوضع غير المستقر أربعة رجال كانوا يتصدون لمن يحاول العبث بأمن القرية من المندسين:

1. الحاج عبدالله بن علي بن مدن، أبو الحاج حسن والحاج علي، وأخو الحاج عيسى وأحمد ومدن وإبراهيم.
2. الحاج محمد بن مكي، والد الحاج مكي وعيسى ورضي، وأخو الحاج محسن وعبدالله.
3. الحاج أحمد بن علي المعيلي، أخو الحاج سلمان بن علي المعيلي، الذي كان جريئًا جدًا.
4. السيد سلمان بن السيد إبراهيم بن السيد نعمة.

هؤلاء الأربعة الصناديد ذكرتهم أبيات، وصلنا بيت واحد منها، حيث ماتت بموت من كانوا يرددونها. ومن لا يزال يتذكرها، فإنه لا يتذكر سوى مطلعها الذي يقول:

قايـــد الجيـــش عبداللـــه امـــدن
محمـــد امـــكي بلـــوزار احتـــزم

وهكذا، تأتي هذه المقطوعة على البطلين الآخرين، ثم الحدث الذي وقع. والواضح أنها تتحدث عن حدث عام شغل القرية بأكملها، وهو تألّق هؤلاء الأربعة في الذود عن حياض موطنهم.

وفاته

انتقل السيد سلمان بن السيد إبراهيم بن السيد نعمة إلى الرفيق الأعلى في 23 شباط/ فبراير 1974م في منزله على سفح ربوة الراهب في الدير، ودُفن في مقبرة الدير الواقعة في آخر نقطة من الدير شرقًا، إن لم تكن في آخر شمال شرق سماهيج.

"ساعد سيب"

أرجـــوك ربي برجـــا الغريـــبِ
دُرًا مـــع الغـــوّاص يـــا مجيبـــي
أرجـــوك بالتجذيـــف يـــا قـــويُ
بدفقـــة الأمـــواج في نحيبـــي
أرجـــوك بالصـــبرِ أيـــا صبـــورُ
والبحـــر مملـــوء مـــن الخطـــوبِ
هـــذا جريـــح القـــرش والوحـــوشِ
وذاك في عجـــزٍ مـــن النـــدوبِ
رفعـــت كفًـــا لونهـــا شراعـــي
ترجـــو نـــوالًا ســـاعة الهبـــوبِ
والمـــوج مـــوتٌ يقـــذف الضحايـــا
في ســـاعة "الطبعـــة" بالكـــروبِ
أفنـــى حيـــاة الغـــوص ثـــم ســـالت
دمـــاؤه فـــمال للغـــروبِ
والنفـــط والمـــالُ بـــه كثـــيرٌ
يغـــري بثـــوبِ الراحـــةِ القشـــيبِ
واللؤلـــؤُ المصنـــوعُ كان شرًا
عـــلى عهـــود اللؤلـــؤ الصعيـــبِ

قيـــل اتـــرك البحـــر ففيـــه شرٌّ
فقلـــت كلا إنـــه حبيبـــي
هـــذا أبـــو الخـــيراتِ ليـــس هـــذا
كنفطكـــم في لونـــهِ المُريـــبِ
يخـــرج بالأقـــذار لا يُشَـــمُّ
والبحـــرُ موصـــوفٌ مـــن الطبيـــبِ
في بطنـــه الأســـماك خـــيرُ رزقٍ
للحُـــرِ فيهـــا عـــن أذى الغريـــبِ
الســـارِقِ المحتـــلِّ لـــلأراضي
في وجهـــه الأحمـــر خبـــثُ ذيـــبِ
ونحـــن أهـــل الديـــر أهـــل بحـــرٍ
في مشـــهد البعيـــدِ والقريـــبِ
وإن يكـــن أصابنـــي جـــروحٌ
فـــذاك في المـــذاق كالزبيـــبِ
واللـــه لـــو دامـــت جِـــداقُ عينـــي
لمـــا حُرِمـــتُ البحـــر مـــن ركـــوبي
فالبحـــر عمـــري ذكـــره نشـــيدٌ
غنّيتـــهُ في زمـــنٍ عجيـــبِ
أروي حكايـــاه عـــلى جليـــسٍ
في ضحكـــةٍ قـــد أذهبـــت شـــحوبي
عـــن ســـاعدٍ شـــمَّرته بعـــزمٍ
فصـــار عنوانًـــا لـــكل ســـيبِ

المراجع:

1. كتاب الدير سيرة ذاتية (الدكتور علي هلال).
2. مقال لبشار الحادي (موقع سنوات الجريش).
3. مقال للأستاذ إبراهيم بن حسن بن إبراهيم (موقع سنوات الجريش).
4. مقابلة مع الحاج رضي السادة.
5. مقال للأستاذ علي بن سلطان (غير منشور).
6. ديوان الحاج سلطان بن حسن بن أحمد الخليف.
7. لقاءات قصيرة متفرقة مع من عاصروا السيد سلمان ومن عاشوا معه.
8. صفحة الدير "فوتو" على "الإنستغرام".
9. جواز سفر السيد سلمان، جواز سفر السيد محمد، بطاقة فاطمة بنت السيد سلمان.
10. قصيدة ساعد سيب للسيد سلمان السيد محمد.

السيد سلمان السيد محمد الموسوي: ناشط بحريني مهتمّ بتوثيق تاريخ قرية الدير، ويعمل من خلال حسابه في "إنستغرام" على نشر كل ما يتعلق بتاريخ القرية ووثائقها.
للتواصل عبر الإيميل: sss7sss4@gmail.com

محمد جواد المعاميري:
قيثارة دلمون ستحمل صوت البحرين إلى العالم

غنى مونس

آمن محمد جواد المعاميري بالموسيقى. شعر بأنَّ هناك من يناديه، وأنها تُمَكّنه من الرّد عليه، فانطلق في مغامرة حالمة قد يكون البعض، حتى الأقربون، وصفوها بالجنون، غير أنه لم يتمكّن من تركها، أحبَّها أكثر مما يحب الحياة، بل أكثر مما يحب نفسه، فتبع حدسه.

وكما سافر جلجامش إلى البحرين الدلمونية، سافر المعاميري إلى دلمون نفسها، أصغى إلى موسيقاها وتبعها، وكان دليله في سفره، رأس ثور.

كيف وُلِدت القيثارة؟

درس الناشط البيئي البحريني، محمد جواد المعاميري، الموسيقى في السبعينيات في مصر، لتحمل صوت قضاياه. استنفد كلّ الأساليب الممكنة، من مناشدات وعرائض، لإيجاد حلول للوضع البيئي المتدهور في البحرين عامة، وفي المعامير، القرية التي تقع ضمن منطقة صناعية، ويحيط بها ما لا يقل عن 130 مصنعًا وورشة، بشكل خاص، فأسس فرقة "موسيقيون مستقلون". ولكونه موسيقيًا، بثّ الأنغام شكواه، فذهب بملفه في مؤتمر تغير المناخ التابع للأمم المتحدة.

"حمل [المعاميري] قريته الصغيرة المنكوبة على ظهره"، وذهب إلى كوبنهاغن ليعرض القضية أمام الرّأي العام. روى هناك، على أوتار عوده، "قصة القتل غير الرحيم، الذي يتعرّض له أهل قريته على يد المصانع الرأسمالية والورش الصناعية المقامة على أرض تملكها الدولة".

اهتمام المعاميري لم ينصبّ على بيئة البحرين وحدها، بل امتدّ إلى تاريخها. في لقاء له مع المؤرخ محمد البقلاوة، المختصّ بالحضارة الدلمونية، تداولا أطراف الحديث عن رأس الثور المكتشف في العام 1981 في البحرين.

كان المعاميري يعرف فقط أنّ رأس الثور هذا رمز مقدس. فوجئ بأنه يمثل رأس القيثارة الدلمونية، توأم القيثارة السومرية.

أجرى عددًا من الأبحاث والدراسات حول دلالة هذا الثور، حجمه، إضافةً إلى ختم يحمل رسم الرأس، موجود حاليًا في متحف باربار في البحرين، وختم آخر يحمل رسم القيثارة بكل تفاصيلها. وتساءل: لماذا لا أحاول أن أعيد تركيب هذه القيثارة؟ أخبر صديقه المؤرخ البقلاوة عنها، فشجّعه على التفكير جديًا على ذلك، لكن الوضع الصعب في البحرين أخّره عن ذلك بعض الشيء. مرت خمسة أعوام، وظل الحلم يؤرقه، إلى أن قرر السفر إلى لبنان.

في بيروت، قابل شخصًا مختصًا بصناعة الآلات الموسيقية. عرض عليه المشروع، لكن الأخير تخوف من الفكرة، فهو لم يرَ مثل هذه الآلة من قبل، وطمأنه المعاميري: "سأكون معك ليلًا ونهارًا". هذا ما حصل فعلًا، على مدى ثلاثة أشهر.

هنا، برز تحدٍ كبير. يمكنك أن تعيد تصنيع آلة، بمقاييس متناسقة، وفقًا لدراسات أجريتها، ورسومات اطلعت عليها، لكن السؤال الأصعب: هل يمكنك أن تجعلها تعمل؟

فيما يتعلق بالأوتار، والسلم الموسيقي، بدا الأمر مستحيلًا، ولا سيما أن هذه القيثارة تعد أول آلة وترية في العالم، وفقًا لما أقره المتحف البريطاني.

براعة اختراع موسيقية

شبه الاستحالة هذا لم يُثنِ المعاميري عن مواصلة جهوده. شهد ليالي وأسابيع من العمل الدؤوب والمتواصل والانقطاع عن الأهل، مكررًا كلما اتصلوا به: "كلموني لاحقًا، أنا الآن مشغول".

أنغام المعاميري الأخّاذة تحمل رسالة واضحة وصريحة: "هنا في البحرين، الموسيقى تحيط بنا، وتحمل صوتنا وقضايانا أيضًا، كل ما عليكم فعله هو الإصغاء".



تكريم الموسيقار محمد جواد المعاميري لإنجازه مشروع قيثارة دلمون في البحرين

ومنذ بضعة أشهر، وجد ضالته. القيثارة القديمة تقوم على 11 وترًا، غير أنه أضاف إليها الوتر الثاني عشر. وكان هذا السبب في حصوله على براءة الاختراع من وزارة الاقتصاد في لبنان.

وبعد أن كانت تُستخدم فقط لعزف الأطوار الموسيقية البحرانية الدلمونية القديمة، أصبح من الممكن عزف موسيقى الشعوب الأخرى عليها بتغيير السلم الموسيقي، فقد كانت القيثارة القديمة مؤلفة من 11 وترًا، غير أنَّ السلّم الموسيقي فيه اثنتا عشرة نغمة، وهذا ما حققه المعاميري. جعل الآلة متوافقة مع السلم الموسيقي، تمامًا كالبيانو أو أي آلة موسيقية أخرى، وهو يرى أنه يمكن "أن تكون الشعوب القديمة قد اكتفت بالأوتار الـ 11 وبأنغامها، غير أنه بهذه الإضافة، يمكن عزف موسيقى كل الشعوب على قيثارة دلمون، إذ يمكن تغيير مفاتيح الأوتار بحرية تامة".

بالنّسبة إلى المعاميريّ، تسجيل براءة الاختراع باسم "القيثارة الدلمونية" يضيف الكثير إلى البحرين، وقد عرّف ذلك العالم على الحضارة الدلمونية، حين نقل عدد من وسائل الإعلام العربية حفل التدشين، وبالتالي أثار اهتمام الكثيرين بها.

الألحان الدلمونية

يؤكد المعاميري أنّه تم توارث الألحان الدلمونية. بالنسبة إليه، فهي ذاتها الأذان التي تستخدم على منابر العزاء الحسينية، وتؤدى عند رفع الآذان. "أي حضارة تخضع لتغيرات، على مستويات كثيرة، وخصوصًا الدين واللغة والتقاليد، وحدها الموسيقى تبقى ذاتها، وإن تغيرت اللغات".

وبالنسبة إليه، الموروث الموسيقي البحريني لم يتغير، تغيرت اللغة لكن اللحن بقي. وعلى ذلك، استنبط ألحانًا عزائية رثائية لأحد المؤلفين البحرينيين، الشيخ الدمستاني، وهي قصيدة تعود إلى أكثر من مائتي عام، وتشكّل أقدم لحن متداول حتى اليوم في البحرين.

يعِد المعاميري بالكثير من المقطوعات الموسيقية المتوارثة من الأجداد: ألحان الفرح والعزاء. سيؤدي في حفلاته المقبلة أغاني البحر، وأيضًا صيد اللؤلؤ. كيف لا، وقد اصطاد على وقعها قيثارة دلمون ولؤلؤاتها الساحرة من محار الزمن.

موسيقى دلمون في بيروت

عزف المعاميري في حفل افتتاح أقيم في العاصمة اللبنانية بيروت موسيقى حضارته وأنشد ألحانها. حضرت دلمون من قلب التراث المُغنى بكلّ بهائها، وحضر المعاميري بعمامته وردائه التراثيين، اللّذين استوحاهما من قلب كتب التاريخ، غير أنّه لم يقدم البرنامج الذي كان قد خطّط له.

التزام المعاميري بالقضايا جعله يغير البرنامج، كان في جعبته الكثير لذلك المساء، لكن مجزرة غزة، التي أدّت إلى سقوط أكثر من ستين شهيدًا، جعلته يلغي الكثير من المقطوعات التي أعدّها، عزف مقطعًا موسيقيًا واحدًا فقط، وكان التضامن مع الشعب الفلسطيني المحور الأساس للأمسية. وكانت تلك نقطة الانطلاق.

بيروت، التي شهدت تدشين القيثارة الدلمونية، لن تكون محطتها الأخيرة، وفقًا له، فهو يطمح لأن يحملها إلى كل دول العالم التي تحترم فن الآخرين وثقافتهم.

أنغام المعاميري الأخّاذة تحمل رسالة واضحة وصريحة: "الموسيقى موجودة لتُذَكّرنا بسوانا في هذا الكون، ولتُذَكّر سوانا بنا"، وكأنها تقول للعالم كله: "هنا في البحرين، الموسيقى تحيط بنا، وتحمل صوتنا وقضايانا أيضًا، كل ما عليكم فعله هو الإصغاء".

المراجع:

1. "جريمة المعامير في كوبنهاغن... ثلاثة شركاء في جريمة المعامير"، قاسم حسين، صحيفة الوسط البحرينية، العدد 2664، الإثنين 21 كانون الأول / ديسمبر 2009، انظر:
goo.gl/LaZj95

2. اختلفت الآراء في سبب اختيار وضع رأس الثور على مقدمة القيثارة، فقد افترض عالم الآثار الموسيقية شتاودر أن الثور كان مقدسًا لدى شعب ما بين النهرين منذ القدم، وكانوا يزينون حتى تيجان الملوك به، لذا قاموا بوضعه على مقدمة القيثارة. أما الدكتورة هارتمان، فترى أن الثور كان في السابق رمزا للألوهية. لكن الدكتور فوزي رشيد استند إلى الربط بين ما وجد في النصوص المسمارية، ليقول إن تقديم القرابين، وخصوصًا إذا كان القربان ثورًا، كان يُرافَق بعزف على القيثارة لأجل تهدئة الثور.

3. يوجد حاليًا في البحرين ختم مصنوع من الطين ومحفوظ في المتحف الوطني في البحرين برقم 358، ويرجع تاريخه إلى المعبد الثالث. والختم يرمز إلى تطور الحياة الموسيقية لدى حضارة دلمون.

4. تعتبر القيثارة المفتاح الأساس لصنع كل الآلات الوترية المعاصرة.

5. "مجزرة غزة: تنديد عربي وقلق غربي"، موقع الجزيرة، 14 أيار / مايو 2018، انظر:
goo.gl/4MxWC8

غنى مونّس: باحثة ومترجمة وأستاذة جامعية من لبنان، تعمل أيضًا في مجال الصّحافة الإلكترونية. تعدّ رسالة ماجستير في الإعلام والتواصل في الجامعة اليسوعيّة في بيروت.
للتواصل عبر الإيميل: ghina.mouaness@gmail.com



توقيع اتفاقية بين مكتبة قطر الوطنية ومنظّمة الأونيسكو بهدف دعم مشروع مشترك بعنوان "دعم مكتبات التراث الوثائقي في المنطقة العربية"

متابعات

مساعٍ لحفظ التراث الوثائقيّ في المنطقة العربيّة

وقَّعت مكتبة قطر الوطنية ومنظَّمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة (الأونيسكو) في شهر تموز/ يوليو اتفاقًا بشأن تنفيذ مشروع مشترك بعنوان "دعم مكتبات التراث الوثائقي في المنطقة العربية".

ويعزّز الاتفاق دور مكتبة قطر الوطنية والأونيسكو في الحفاظ على التراث الثقافي الثري الموجود في المكتبات في شتى أنحاء المنطقة العربيَّة، والذي يكتسب أهمية كبرى في جميع أرجاء العالم، إذ يهدف المشروع إلى حماية تاريخ المنطقة العربية وهُويتها وأنواع المعارف فيها، من خلال حفظ تراثها الوثائقي المهدد حاليًا بالاندثار، نتيجةً للإهمال، أو التدهور الطبيعي، أو استخدام تقنيات غير حديثة في حفظ التراث الوثائقي، أو حفظه في أماكن غير مناسبة، أو بسبب الإتلاف والتدمير المتعمد.

ويشمل هذا المشروع، الَّذي سيستمرّ لمدة 18 شهرًا، حصر التراث الوثائقي في كلّ البلدان العربيّة، وتحديد المناطق التي تحتاج إلى دعمٍ إضافي أو المساعدة في بناء القدرات. وسينجم عنه مجموعة من النتائج المهمّة، منها تنظيم دورات تدريبية بشأن كيفية حفظ التراث الوثائقيّ، بهدف صقل مهارات المتخصّصين والعاملين في هذا المجال في الدول المتضرّرة، والارتقاء بكفاءتهم وقدراتهم، وذلك في البلدان التي تشهد أزمات، وتقديم إرشادات بشأن إجراءات الصيانة الوقائية للتراث الوثائقي في الأوضاع الطارئة.

وسيعزّز المشروع كذلك أواصر التعاون بين مكتبة قطر الوطنية والأونيسكو، ويقوم على إنجازات الطرفين في مجال حفظ التراث الوثائقي وتعزيزه في المنطقة العربية.

وقال الدكتور ستيوارت هاميلتون، نائب المدير التنفيذي لشؤون العلاقات الدولية والاتصال في مكتبة قطر الوطنية: "تمثّل المواد الأرشيفية والوثائقية الموجودة في المكتبات جزءًا بالغ الأهمية من تراث أيّ أمة وتاريخها. إننا نعتزّ بتعاوننا مع الأونيسكو من أجل دعم الحفاظ على المكتبات التراثية في البلدان العربية وتعزيز الوعي بأهميتها الثقافية الكبيرة".

وعلَّقت الدكتورة آنا باوليني، ممثلة الأونيسكو لدى الدول العربية في الخليج واليمن، ومديرة مكتب الأونيسكو في الدوحة، على هذه الشراكة قائلةً: "تضمّ منطقة الشرق الأوسط كنوزًا ثمينة من التراث الثقافي الزاخر بالمخطوطات والكتب والخرائط ومقاطع الفيديو والسجلات الأرشيفية التي تسهم إسهامًا كبيرًا في حفظ تاريخ البشريَّة، وتضطلع بدور مهم في حماية هذا التراث والحفاظ عليه، الأمر الَّذي يُعدّ ركيزة أساسية لإثراء الحوار بين الثقافات، وهو ما نسعى إلى تحقيقه من خلال هذا المشروع".

النيبال تعزّز السّياحة بأرشفة المخطوطات وحفظها

نظَّمت دائرة الأرشيف الوطنيّ في جمهورية نيبال مهرجانًا لمدة ثلاثة أيام في شهر أيلول/ سبتمبر يحتفي بمخطوطات ومستندات وطنيَّة، وذلك في مقرّ مجلس السياحة النيبالي.

ويعرض المهرجان نحو 85 مخطوطة مؤرشفة من قبل الدائرة، وفقًا لصحيفة The Himalayan Times النيباليَّة.

وأكَّد وزير الثقافة والسياحة والطيران المدني، رابيندرا إديكاري، أهمية الأرشفة، وجعلها محورًا مهمًا في الدراسات والأبحاث، بهدف التشجيع على السياحة.

وأضاف أنَّ متحف بوخارا الإقليميّ بحاجة إلى التطوير، في ظلِّ التوجّه الكبير إلى توثيق المخطوطات المحليّة، فجرى حتى الآن تأمين نحو 200 ألف نسخة مصغَّرة من الوثائق، متضمّنة النسخ الأصلية لـ300 ألف مخطوطة. وفي نهاية العام، سيتم تأمين 600 ألف وثيقة رقميَّة

اختتام مشروع الأرشفة الرقميَّة في دائرة الأراضي والمساحة في الأردن

اختتمت دائرة الأراضي والمساحة في الأردن، في آب/ أغسطس، مشروع الأرشيف الرقمي الَّذي موَّلته هيئة الأراضي والخرائط الهولندية، واستمرَّ تنفيذه مدة 18 شهرًا.

وقال مدير عام دائرة الأراضي والمساحة، معين الصايغ، إنَّ المشروع حقَّق العديد من النتائج، أهمّها كيفية حماية الأرشيف الحالي، من خرائط وعقود، وتحسين جودته، وإدخال الأرشيف الرقمي في أعمال الدائرة داخليًا وخارجيًا.

وأشار إلى أنَّ تنفيذ المشروع أسفر عن وضع خارطة طريق تضبط تسلسل عملية الأرشفة الإلكترونيّة وعمل دائرة الأراضي وأنشطتها، والتي ستختار منطقة ريادية لبدء تنفيذ الخارطة، وضمان عمل متكامل لأرشفة وثائق الأراضي فيها، بعد توفير الموارد البشرية والمالية.

ولفت إلى أنَّ الدائرة، بالتعاون مع الجهات المعنيَّة، ومنها الهولندية، ستنظّم منتدى لإدارة الأراضي الحديثة في عمّان العام المقبل، للوقوف على تحديات قطاع الأراضي في الوطن العربي، بحيث ينتج منه إعلان عمان لوضع مرتكزات لمواجهة هذه التحديات.

وأكَّد أنّ أثر مشروع الأرشفة سينعكس على مستوى الخدمة التي تقدّمها الدائرة للمواطنين والمستثمرين على السواء. ومن أبرز المكتسبات التي حقَّقها مشروع الأرشفة الرقميّة، الاطلاع على التّجربة الهولنديّة في مجال الأرشفة، وحماية الأرشيف الرقميّ، وتعزيز الوعي بأهمية جودة المنتج الرقمي في دائرة الأرضي والمساحة والعمل على تحسينه، وتقدير مستوى قدرات الدائرة في استعمال التكنولوجيا والأرشيف الرقميّ، مقارنة مع الدول العربية والعالمية.

وأعرب السكرتير الأول للتطوير الاقتصادي في السفارة الهولندية في عمان، سفن فان دين بيرغ، عن تفهّم المملكة الهولنديّة للصّعوبات التي تواجه الأردن في المرحلة الحالية، مؤكّدًا سعي بلاده لدعم مساعي الأردن التطويرية، من خلال تبني منظومات حديثة لإدارة الأراضي واكتساب المعرفة.



قاعة عرض المخطوطات القديمة خلال الدورة الثلاثين لمعرض الكتاب العربي في دمشق

مخطوطات نادرة تُعرض في دمشق

خصَّصت الدَّورة الثلاثون لمعرض الكتاب العربي الذي أقامته وزارة الثقافة السورية، احتفالية خاصَّة للمفكّر الإسلامي الكبير الفارابي. وتضمَّنت فعاليات المعرض الَّذي انطلق في 31 تموز/ يوليو واستمرّ لغاية 11 آب/ أغسطس، متحفًا خاصًا بالمخطوطات القديمة.

ومن بين المخطوطات نسخة من القرآن الكريم، وهي نسخة كبيرة الحجم تحتوي الكثير من الزخارف، ومخطوطة عن "إخوان الصفا" كُتبت في العام 1042 هجرية.

كما قدّم ركن المخطوطات القصيدة الزينبية الشهيرة، التي ينقسم الرأي في تأليفها إلى مذهبين، الأول يرى أن مؤلّفها هو الإمام علي بن أبي طالب (ع)، والآخر يعتقد أنَّها للشاعر صالح عبد القدوس، وهي قصيدة نادرة تضمّ نحو سبعين بيتًا في المواعظ والحكم والقول المأثور.

كما قدّم المعرض العديد من المخطوطات القديمة التي تنوَّعت في العديد من صنوف العلم والمعرفة.

مركز جمعة الماجد في الإمارات ينظّم ورشة عن الأرشيف الإلكترونيّ

نظّم مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث ورشة تدريبيَّة بعنوان "الأرشيف الإلكتروني: نُظم تأمين وحفظ واسترجاع الملفات والوثائق إلكترونيًا"، في شهر آب/ أغسطس، قدّمها الدكتور أحمد عبد الراضي، رئيس قسم الخدمات الفنية في المركز، وحضرها 46 متدربًا ومتدربةً من مختلف الجهات الحكومية والخاصَّة وطلاب الجامعات.

ويسعى مركز جمعة الماجد، من خلال تنظيم هذه الورش في الموسم الثقافي الصّيفيّ، إلى نشر الفائدة، واختيار الموضوعات التي تهم المتدربين، والموضوعات التي تواكب وتيرة التطوّر الذي تسعى إليه الدولة.

وقال عبد الراضي: "إنّ الهدف الأساس من الورشة هو التعريف بأحدث الطرق والتقنيات المستخدمة في مشروعات الأرشفة الإلكترونية في المنطقة العربية والعالم في السنوات الأخيرة، والمعايير المتّبعة في ذلك".

وقد بدأت الورشة بالحديث عن أهمية المحفوظات والتوثيق في المؤسّسات، ومفهوم الوثائق، وطرق الحفظ المتّبعة، ثم تناولت عددًا من المحاور المهمَّة، منها: التعريف بطرق تحويل الوثائق إلى الشكل الرقميّ، وتطبيق أساليب بناء الأرشيف الإلكترونيّ في المؤسَّسات، والتعريف بأشهر الأنظمة الخاصَّة بالأرشيف الإلكتروني.

مركز إحياء التراث في بغداد ينظّم ورشة عمل عن أرشفة الملفّات الإلكترونيّة

نظَّم مركز إحياء التراث العلميّ العربيّ في جامعة بغداد ورشة عمل عن كيفية أرشفة الملفات إلكترونيًا، وذلك في شهر آب/ أغسطس. وتناولت الورشة الطرق الحديثة في حفظ الملفات، لأنَّ الحفاظ عليها يشكّل عاملًا مهمًا لحفظ تراث المركز.

وبيَّنت الورشة أهمية الأرشفة بشكل علميّ وصحيح ومنظّم، بحسب عائدية الوثائق والكتب الموجودة.

ودعا المشاركون فيها إلى مواكبة التطورات الحديثة في مجال الأرشفة، للحفاظ على الوثائق والكتب، واختصار الوقت والجهد في حال الرجوع إليها عند الحاجة.

مخطوط تاريخيّ نادر يُعرض للمرة الأولى في القاهرة

عُرض في القاهرة لأول مرة مخطوط "المختصر في علم التاريخ"، الذي تمكَّنت مصر من استعادته من لندن بعد عدة عقود على اختفائه. والمخطوط الأثريّ النّادر يرجع تاريخه إلى نحو 6 قرون، وهو من تأليف محمد بن سليمان بن سعد بن مسعود الكافيجي (788-879هـ).

وأوضح رئيس دار الكتب والوثائق القوميَّة، هشام عزمي، أنّ "المخطوط فُقد من دار الكتب والوثائق في ظروف غامضة في سبعينيات القرن الماضي، ليظهر فجأة في نيسان/ أبريل الماضي في مزاد في دار بونامز في لندن".

وأضاف: "بدأت مصر حينها جهودًا مكثّفة لإثبات أحقّيتها فيه، من خلال الوثائق والأدلّة، وقد تكلَّلت هذه الجهود بالنجاح في 13 تموز/ يوليو"، مشيرًا إلى أنّ المخطوط "يتفرَّد بقيمة تراثية وعلمية كبيرة، إذ يعدّ أقدم رسالة إسلاميّة معروفة عن نظريات التاريخ، ويمتاز بأصالة منهجه، إذ اهتمَّ بتوضيح المناقشات النظرية للتاريخ في منهجه القصصيّ".

وقال: "أهمية المخطوط ترجع إلى كونه الكتاب التراثي الوحيد المُؤلف، بحسب علمنا، في مصطلح التاريخ مستوفيًا الجانبين النظري والتطبيقي، على الرغم من صغر حجمه"، مؤكدًا أنّه "من المراجع الأساسية لهذا التخصص، وقد فتح مجالًا لكلّ من أتى بعده لكي يستفيد منه ويبني عليه ويستند إليه، مثل جلال الدين السيوطي وشمس الدين السخاوي".

وتابع: "ميزة أخرى يكتسبها هذا المخطوط، وهي أنه نُسخ بعد ثمانية أيام فقط من كتابة مؤلّفه له، وهناك فرق كبير بين مخطوط نُسخ في حياة مؤلفه وآخر نُسخ بعد وفاته أو رحيله بعقود".

وقال عزمي: "هناك وحدة جديدة يجري العمل على إعدادها وتفعيلها، لتتبّع المخطوطات والكتب التراثية المفقودة والعمل على استعادتها قبل ضياعها للأبد، وذلك إلى جانب المضي قدمًا في مشروع رقمنة الوثائق والمخطوطات".

كونغرس المجلس الدوليّ للأرشيف في ضيافة الإمارات

استضاف الأرشيف الوطني في الإمارات كونغرس المجلس الدولي للأرشيف، في شهر آب/ أغسطس، بمشاركة نحو 200 دولة، بالتزامن مع انطلاقة إكسبو 2020.

وقالت سمر عمر المشجري، مديرة مكتب التخطيط الاستراتيجيّ في الأرشيف الوطني في وزارة شؤون الرئاسة: "يعتبر الكونغرس أكبر تجمع أرشيفي عالمي يُعنى بالقضايا الخاصَّة بالإرث الإنسانيّ وجمعه وحفظه، وقد تقدَّمت الإمارات بطلب للجمعية العمومية للمجلس الدولي للأرشيف، ففازت بالاستضافة".

طاولة مستديرة في لبنان عن دور التّوثيق في المحافظة على التراث

أقامت جمعية "أبساد" في لبنان في شهر أيلول/ سبتمبر طاولة مستديرة في مركزها في دير القمر، ضمَّت عددًا من المتخصّصين بالتراث، بحضور مديرة مركز الترميم في الجامعة اللبنانية، عضو اللجنة التنفيذية في "الأبساد"، ياسمين معكرون، المؤرّخ في علم الآثار حارث بستاني، المهندستين المعماريتين المتخصّصتين في الترميم نتالي

شاهين وغرايس ريحان، الاقتصادي والخبير في التراث جورج زوين، والمهندس المعماري والمصور سمير صدي.

وأوضح بيان للجمعية أنَّ "تنظيم هذه الطاولة المستديرة تم بمناسبة معرض دير القمر عبر أرشيف الأبساد، وهي مجموعات غنية جدًا تعود إلى الستينيات"، لافتًا إلى أنّ "المتحدّثين أكدوا أهمية أرشفة الأماكن المميزة في البلاد وتوثيقها، وقد تركّز النقاش على مشكلة تشتتها نتيجة الحرب، وصعوبة الوصول إلى محفوظات المؤسسات الخاصة والمجموعات الفردية. وقد نوقشت على نطاق واسع الحاجة إلى تتبّع القضايا المهمَّة، مثل تجديد ساحة الميدان وإدارج دير القمر على قائمة الأونيسكو للتراث العالمي".

وأكَّد المشاركون، في الختام، أهمية إنشاء قاعدة بيانات متاحة للجميع، وإمكانية إعادة تفعيل مشروع إدراج دير القمر على لائحة التراث العالمي، مع توسيعه ليشمل المشهد الثقافي في الشوف، بما في ذلك قصر بيت الدين والمواقع الأثرية. كما أنهم رحَّبوا باستئناف أنشطة الأبساد في دير القمر، متمنّين مشاركة الجمعية في جمع البيانات والخبرات اللازمة للحفاظ على التراث.

معرض للأرشفة والتوثيق في مدينة صلالة العُمانيَّة

افتُتحت في شهر آب/ أغسطس أعمال المعرض الوثائقي الَّذي تنظّمه هيئة الوثائق والمحفوظات الوطنية في عُمان ضمن فعاليات مهرجان صلالة السياحي، والذي استمرّ ثمانية أيام.

وقال الدكتور جمعة بن خليفة البوسعيدي، مدير عام المديريَّة العامة للبحث وتداول الوثائق في الهيئة، إنَّ تنظيم المعرض الوثائقيّ يأتي استمرارًا للمعارض التعريفية السّابقة التي شاركت بها الهيئة، لتعريف زوار الاحتفال بالإرث الحضاري والتاريخي الَّذي تزخر به السلطنة عبر العصور الزمنية المختلفة.

وأوضحت حنان بنت محمود أحمد عودة، مديرة دائرة المعارض الوثائقية، أنَّ المعرض الوثائقيّ في مهرجان صلالة السياحي يؤكّد أهمية تثبيت الذاكرة الوطنية، وإبراز هذا الكنز التاريخي والحضاري للأجيال، مشيرةً إلى أن المعرض يأتي في نسخته السابعة بهدف نشر الوعي الثقافي في مجال الوثائق والمحفوظات للمواطنين والزوار.

ويتخلَّل المعرض عرض قرابة 200 وثيقة، إلى جانب 12 مخطوطة تاريخية، وعرض بعض وثائق المواطنين تكريمًا لمبادرتهم في تسجيل وثائقهم لدى الهيئة.

ويتضمّن المعرض هذا العام عرضًا لتاريخ الأرشفة وأساليب التّوثيق من العصور الحجريَّة، لإعطاء زوّار المعرض والمهرجان لمحة عن نشأة التوثيق في السّلطنة. كما يضم المعرض أركانًا مختلفة تتضمَّن المراسلات السلطانية، وعُمان عبر التاريخ، وعُمان في الصحافة العالمية، وكذلك المعاهدات والاتفاقيات والخرائط القديمة، وغيرها من المواضيع المتنوّعة.

"تخطيط الشارقة" تؤرشف 60 ألف وثيقة إلكترونيًا

شرعت دائرة التخطيط والمساحة في الشارقة بعملية الأرشفة الإلكترونية لـ60 ألف وثيقة مهمة، وفقًا لنظام تصنيف الوثائق، وذلك بالتعاون مع هيئة الشارقة للوثائق والأرشيف. وبذلك، تكون أوّل دائرة في حكومة الشارقة تدشّن بدء العمل بتنفيذ حفظ الوثائق وفقًا للنظام المعتمد.

وقالت شيخة حنايا السويدي مديرة إدارة الوثائق في الدائرة: "إنَّ الإدارة شكَّلت فريق عمل ومنسّقين من كلِّ الإدارات، وطوَّرت برنامجها الإلكترونيّ لأرشفة المعاملات، توافقًا مع نظام التصنيف المعتمد، كما أنَّها قامت بطباعة وتجهيز كلّ الملفات والحاويات الورقية التي تضمن تنفيذ متطلّبات النّظام الجديد بشكل كامل، وذلك بالتنسيق مع هيئة الشارقة للوثائق والأرشيف".

وأشارت شيخة حنايا السويدي إلى أنَّ رحلة حفظ الملفات تمرّ بعدة مراحل أساسية لاستكمال عملية التوثيق والأرشفة، تبدأ بوضع كلّ وثيقة في ملفّ منفصل، ثم إعطاء كلّ وثيقة الرمز التصنيفي، بحسب نوع الإجراء، ثم إضافة رمز المنطقة، ورقم قطعة الأرض، ونوع حالة الأرض، والسنة التي تم بها الإجراء إلى رمز التصنيف، ثم وضع هذه الوثائق في ملفّات ووضعها في صناديق "حاوية الوثائق"، وطباعة لائحة بجميع الوثائق الموجودة في صندوق "حاوية الملفات"، وطباعة الملصقات وتثبيتها على حاوية الوثائق، ثم مباشرة الأرشفة الإلكترونية وفقًا للبرنامج المعد لذلك. وأخيرًا، تنفيذ عملية الاسترجاع الإلكترونيّ للمعاملة.

وأكَّدت السّويدي أن الدائرة قامت كذلك بتدريب الموظّفين المعنيين بمختلف الإدارات بدائرة التخطيط والمساحة، تمهيدًا للبدء في تنفيذ عمليات التوثيق الموسعة، بما يحفظ حقوق الإدارة المعنية والمتعاملين معها، إضافةً إلى توفيره نفقات ضخمة، إذا ما تم تنفيذه على دوائر الإمارة كافة.

وأوضحت أنَّ الإدارة نفَّذت سابقًا كلّ المتطلّبات والآليات التي وضعتها الهيئة، والخاصَّة بنظام إدارة الوثائق، والتي تألفت من 6 مراحل، يتمثّل أولها بتحديد موعد الاجتماع مع الإدارة المعنية بالدائرة لشرح المنهجية، والثانية بتشكيل فريق عمل، في حين تضمّنت المرحلة الثالثة الجدول الزمني لاستخراج النشاطات والمهام وملء استمارة جرد الوثائق المنتجة في كل إدارة.

وأضافت السويدي أنَّ المرحلة الرابعة شملت خطة التصنيف، وتحديد الوظائف الأساسية والفرعية، وإعداد الصيغة الأولية لنظام التصنيف. وفي المرحلة الخامسة، تم إعداد الصيغة الأولية لخطة مدد الاستبقاء. وفي المرحلة السادسة والأخيرة، تم توزيع نظام التصنيف ومدد الاستبقاء على الإدارات.

العثور على مخطوطات لجان جاك روسو في روسيا

عُثر على مخطوطات كتبت بقلم الفيلسوف الفرنسي جان جاك روسو (Jean-Jacques Rousseau) (1712 - 1788م) في قبو أحد المباني السكنية قرب مدينة سان بطرسبورغ الروسية.

ولم يتمّ التأكّد بعد من أنَّ المخطوطات والرسائل التاريخية تعود فعلًا إلى روسو، لكن محتواها يلقي الضوء على سيرة حياة الفيلسوف الذي كان يعتقد في وقت سابق أنه رفض دعوة الكونت الروسي أرلوف له بزيارة روسيا.

وفي حال تأكيد ملكية الرسائل (بخطّ يد روسو)، فإن هذا يثبت أنَّ الفيلسوف الفرنسي زار روسيا متخفيًا.

وتتحدث هذه المخطوطات في العموم عن رحلات روسو التي يصف فيها الأماكن التي زارها وتفاصيل زيارته وعلاقته بالكونت أرلوف.

أرشيف تركيا الدبلوماسي بين أيدي الباحثين!

بدأت وزارة الخارجية التركية في شهر آب/ أغسطس تنفيذ مشروع رقمنة أرشيفها الدبلوماسي منذ تأسيس الجمهورية التركية في العام 1923، والذي يتيح كلّ المراسلات والوثائق للباحثين والمهتمين عبر الشبكة العنكبوتية.

وتهدف وزارة الخارجية من هذه الخطوة إلى إتاحة الفرصة أمام الباحثين من أجل الوصول بكلّ سهولة إلى كل الوثائق، مع ضمان الموثوقية والسرعة. وتحتفظ تركيا بأرشيفها الدبلوماسي الورقي في مبنى الأرشيف في وزارة الخارجية منذ العام 2012، بعد نقله من الرئاسة العامة للأرشيف في العاصمة التركية أنقرة.

ويُحظر على أيّ شخص دخول مستودعات الأرشيف، باستثناء الموظفين المسؤولين في الوزارة، ويبلغ عددها 32 مستودعًا مزوّدًا بنظامي إطفاء بالغاز الجاف، وتحكّم بدرجة الحرارة ومستوى الرطوبة.



إحدى مراحل أرشفة الوثائق ورقمنتها

ويُصنَّف الأرشيف ضمن صناديق إلكترونية مزوّدة بنظام شيفرة خيطية (باركود)، وهي مقاوِمة للحرائق والسيول والكوارث الطبيعية.

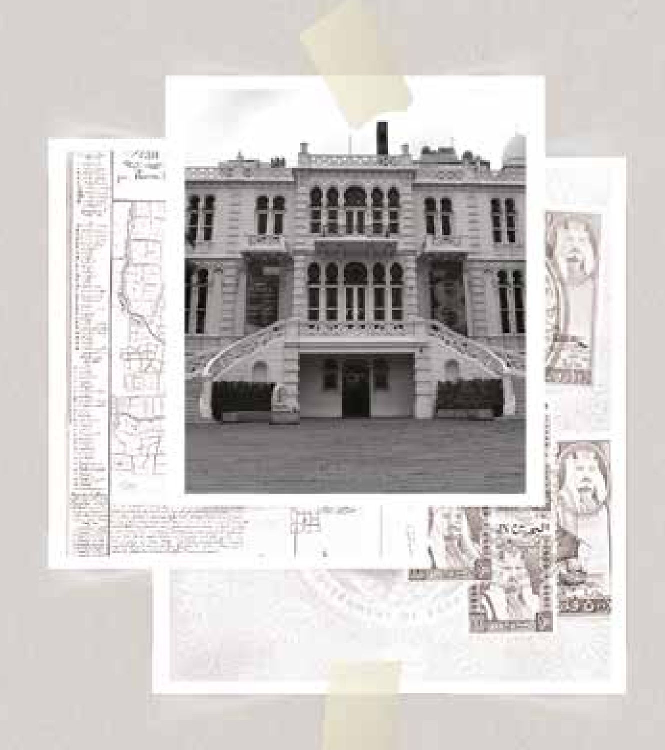
ويضمّ أرشيف الخارجية التركية اتفاقات ومعاهدات رسم حدود، من مثل معاهدتي "لوزان" و"مونترو" (لنظام المضائق التي تشرف عليها تركيا) .كما يضمّ اتفاقيات "غومرو" و"قارس" و"أنقرة" و"موسكو"، التي وضعت أسس قيام الجمهورية التركية بعد هزيمة العثمانيين في الحرب العالمية الأولى.

وعرضت وثائق الاتفاقيات المؤسّسة للجمهورية التركية لأول مرة في مؤتمر سفراء تركيا العاشر، في العاصمة أنقرة، بين 12 و17 آب/أغسطس، كما أنّ وزارة الخارجية نشرتها في موقعها في قسم المكتبة.













info@awalcentre.com | www.awalcentre.com

